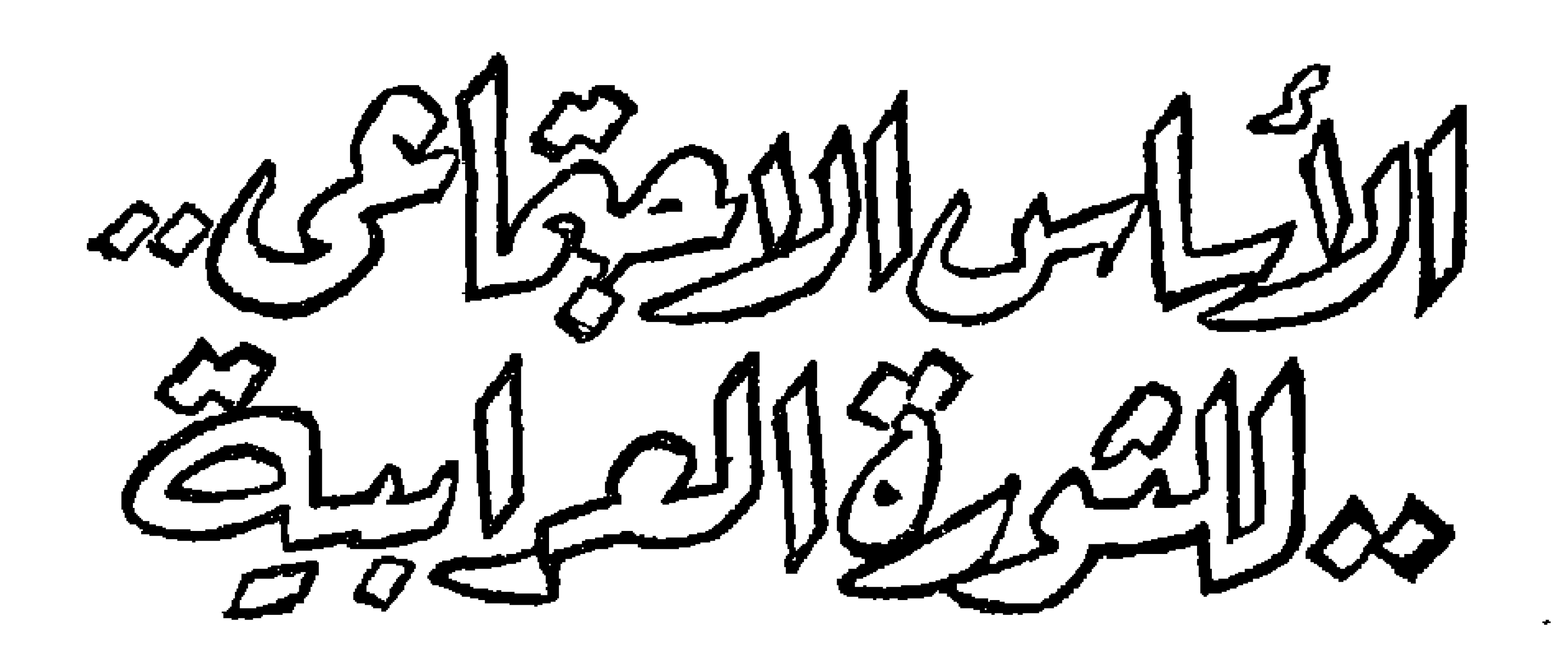
الأساس الاجتماعي للثورة العرابية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الدكتور رفعت السعيد



الطبعة الثالثة

تقديم : خالد محيي الدين



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٤

تقديم

خالد محيى الدين

فى النصف الثانى من القرن العشرين أصبح العلم هو السلاح الأساسى فى يد الحركات الوطنية ذات المحتوى الاجتماعى الثورى فى مواجهة قوى الاستعمار والرجعية وأقصد بالعلم الدراسة العميقة لحركة المجتمع وتطوره وتحليل القوى الاجتماعية وصراعها وعلاقات القوى داخل هذا المجتمع ، ومعرفة اتجاهات التطور والتنبؤ بخطوط السير فى المستقبل .

ودراسة التاريخ الوطنى على أسس علمية . بكشف جوانب الصراع الطبقى وتطورها فى فترات التاريخ المتلاحقة . تعتبر سلاحاً من الأسلحة الهامة فى معركة التحول الاجتماعى الذى تخوضه جماهير شعبنا من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين . وهى سلاح لتثقيف الجماهير بالعلم والوعى لتفهم حركة مجتمعها وتقيمها على أسس أكثر صدقاً وموضوعية .. وهى طريق لإثارة الحماسة الوطنية لدى هذه الجماهير على أساس من الاقتناع العقلى والانفعال الوجدانى .. وكتاب « الأساس الاجتماعى للثورة العرابية » يصدر من منطلق تكريس هذه القضية الاجتماعية والوطنية الهامة . فهو يلقى أضواء جديدة على المحتوى الحقيقى للحركة العرابية وفى محاولة لإعطاء مضمون اجتماعى وعلمى لكثير من الحقائق التاريخية التى اعتدنا أن ننظر إليها بشكل مجرد .

ومن هذه الزاوية يقدم الكتاب تحليلا للوضع فى الريف المصرى وتطور الملكية الزراعية فى مصر متتبعاً ظهور طبقة كبار الملاك

المصريين التى أصبحت تطالب بالمشاركة فى الحكم وتعارض التسلط الأجنبى على الإدارة والوظائف .

وبالوثائق التاريخية أثبت الكاتب أن الحزب الوطنى كان تجمعاً لكبار الملاك والباشوات الدستوريين الذين عارضوا التسلط الخديوى وجشع اسماعيل الذى انتزع لنفسه كثيراً من أراضيهم والذى تراكمت ديونه دافعة بالبلاد كلها فى أيدى الأجانب . وفى معرض التحليل العلمى للقوى الاجتماعية والسياسية ونشوء الطبقات وتطورها اجتماعيا واقتصادياً وسياسيا فى هذه الفترة من تاريخ مصر تحدث عن المثقفين المعتدلين أو جماعات الوسط ممن يشككون فى حركة الجنود الفلاحين ويحاولون السير بها نحو اتجاهات معتدلة وهادئة وبعيدة عن العنف مثل جماعة الشيخ محمد عبده .. وجماعة « مصر الفتاة » السرية التى شكلها جمال الدين الأفغانى .. والمحافل الماسونية التى حاول الأفغانى من خلالها كسب الأعيان إلى صف العدالة والحق دون جدوى .

ثم يقدم الكتاب عرضاً للحزب العسكرى الذى يتكون أساساً من ضباط ترقوا من تحت السلاح أى من شبان فلاحين فقر دخلوا الجيش عن طريق القرعة الإجبارية . ثم يقدم البرنامج الذى صاغه عرابى لنفسه ولحزبه وللثورة ، وهو برنامج واضح التقدم قاطع فى عدائه للاستعمار والرجعية .

والكتاب دفاع عن عرابى الذى هوجم ولا يزال يهاجم من بعض الكتاب حتى الآن . وهو بذلك يضع الثورة العرابية فى إطارها الحقيقى كثورة للفلاحين ليست موجهة ضد الاستعمار فحسب وإنما أيضاً ضد الإقطاع .. وخادمه الأول الخديوى .

والكتاب فى مجمله دراسة اجتماعية وسياسية دقيقة لمسار الحركة والتطور فى المجتمع المصرى فى تلك الحقبة التاريخية الهامة من حياتنا .

وهو يستعرض تطور أساليب الكفاح التى لجأ إليها الفلاحون فى نضالهم ضد الإقطاع والسخرة .

ثم يتحدث الكتاب عن الجهود التى بدلت أيام محمد على والتى حولت كثيرين من أبناء الفلاحين الفقراء إلى طلاب و صناع وجنود ويتتبع المؤلف فى عناية الأثر العميق الذى تركه هذا العمل فى التكوين الاجتماعى والسياسى للقرية المصرية وفى تطور أساليب كفاحها .

ولم ينس الكاتب الأزهر والصراع فى داخله وحركة الكفاح فى المدينة ودور التجار وعجزهم عن قيادة الحركة الثورية النابع من عجزهم عن تجميع رءوس أموال ضخمة واتجاههم إلى تملك الأراضى الزراعية كرمز اللجاه والسلطان .

ثم هناك أيضاً اساليب الكفاح التى نهجها المثقفون ، ونظرية الحاكم المصلح التى بشر بها الأفغانى فى أول الأمر . . ثم محاولة كسب الأعيان عن طريق إقناعهم بالحق والعدالة والأخوة داخل المحافل الماسونية .. وأخيراً تشكيل تنظيم سرى للانتقام « مصر الفتاة لكنه يظل عاجزاً عن الانتقام .

وفى وسط هذا الجو المشحون يبرز دور الجيش.. ودور الضباط المصريين من أبناء الفلاحين الفقراء الذين تبلورت فيهم قيادة حقيقية للثورة تمكنت فى أول الأمر من جمع حلف يضم كل القوى المعادية للاستعمار والخديو ابتداء من الإقطاع (سلطان باشا والشريفى باشا وشريف باشا) من أقطاب الحزب الوطنى ، إلى الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وسليم خليل نقاش تلاميذ الأفغانى من المثقفين المعتدلين .. إلى أبطال الثورة الحقيقيين .. الفلاحين الذين استولوا على أرض الباشوات الأتراك ووزعوها على أنفسهم محققين بذلك قفزة

ضخمة فى المستوى الاجتماعى والسياسى للثورة ذاتها.. إلى محمدعبيد ومحمد أفندى أبو ديه وعشرات ومئات من أبطال الجيش الذين استبسلوا دفاعاً عن الوطن ..

ثم تفككت هذه القوى . . إذ خان الإقطاع منذ أول خطوة للثورة ثم تردد المعتدلون ، ولم يبق سوى الشعب وقادته من الضباط أبناء الفلاحين .

والكتاب فى مجمله دفاع عن عرابى فى وجه حملة التشهير التى عززها الاستعمار والرجعية والتى لاتزال تجد لها صدى حتى الآن. كما أنه محاولة لتوضيح المضمون الثورى لحركة عرابى ولإلقاء نظرة علمية على مواقف القوى المختلفة حيال هذه الحركة .

والكتاب يدلل على أن ثورة عرابى رغم فشلها فى عام ١٨٨٢ كانت بداية النهاية بالنسبة لأولئك الذين تآمروا على عرابى وثورته وكانت مقدمة لثورة أخرى قام بها نفس الجيش فى يوليو ١٩٥٢ .

بقيت كلمة أخيرة عن الكاتب الأستاذ رفعت السعيد الذى عرفته صحفياً بأخبار اليوم ، وكاتباً وباحثاً فى التاريخ المصرى الحديث وإنى بمعرفتى الوثيقة بالكاتب - فنحن نعمل الآن معاً - أقدر أن القارىء سوف يجد فيه كاتباً دقيقاً ذا حاسة وطنية واجتماعية ثورية تفتح للفكر طريقاً جديداً فى الدراسة الاجتماعية والسياسية للمجتمع المصرى الحديث ، والله يوفقنا جميعاً لخير أمتنا والإنسانية كلها .

القاهرة فى ١٩٦٦/١١/١٩ — خالد محيى الدين

الاهـــــداء

إلى زوجتي.. فقد
ساهمت في هذا الكتاب
بكثير من الجهد..

رفعت السعيد

قبل أن نبدأ

ليس سهلا أن يختار المؤلف عنواناً لكتابه .

فهو عندما يكتب يتوخى الحقائق العلمية والوقائع التاريخية دون أن يتقيد بأى شىء آخر . لكنه عندما يختار عنوان كتابه يتنازعه صراع بين الحقيقة العلمية والنوازع الأدبية . ولو أننى تركت الحقيقة العلمية العنان لأسميت هذا الكتاب « صراع الطبقات وتطورات القوى الاجتماعية التى ولدت الثورة العرابية »

وما من كلمات أخرى تستطيع أن تعبر عن المعنى الذى أريد .

ما من اختصار يمكن أن يفيد .

فهذه الكلمات بالذات هى وحدها التى يمكن أن تعبر عن الهدف الذى ينشده هذا الكتاب . . لكنه أيضاً ما من إنسان يوافقنى على اختيار عنوان طويل كهذا . . وتتدخل النوازع الأدبية والرغبة فى عنوان مختصر ذى رنين .

وأختار عنواناً آخر لكن الموضوع يظل كما هو دون تغيير .

لكن لماذا ؟

لماذا ظلت فكرة إعداد هذا الكتاب تلاحقنى سنة بعد أخرى وتلح على كواجب لن أشعر بالراحة بغير إنجازه ؟

ربما كان السبب قصة سمعتها من أبى وأنا صغير ..

قصة شيخ أبيض الشعر دخل إحدى مقاهي مدينة المنصورة .. واستطالت جلسة الشيخ . لم يكلم أحداً ولم يهتم به أحد .. وفجأة انطلق شاب — يقال إنه من الحزب الوطني — ووقف منتفضاً ..

— هل أنت عرابى باشا الخائن ؟

وبهت الرجل العجوز وسكت لحظة ثم قال :

— أنا عرابى .. لكننى لست خائناً .. ولست باشا .

وهز الفتى رأسه فى سخرية ثم بصق على الأرض فى احتقار ومضى .

ولم يكن أمام الرجل العجوز سوى أن يبكى .

وربما كانت قصة أخرى ..

قصة ذلك اللقاء الذى استقبل به « الحزب الوطنى » الزعيم العائد من المنفى ، هجمات مصطفى كامل عليه فى مجلة اللواء وأخيراً بصقة فى وجهه من أحد شباب الحزب اسمه اسماعيل لبيب ، ومن يومها سجن الزعيم نفسه فى بيته وقرر ألا يخرج منه .. حتى مات

وهكذا مات الرجل مضطهداً كما لم يضطهد أحد .

وأنا لا أقصد بالاضطهاد سجنه ومحاكمته ونفيه ومصادرة أملاكه فهذه كلها مسائل محتملة .. لكن الذى لا يحتمل هو إدانات وشتائم بل وبصاق المواطنين المخلصين ..

والحقيقة أن الاستعمار قد نجح تماما فى أن يستدرج القوى الوطنية المختلفة إلى حمى العداء لعرابى والثورة العرابية .

لكن لماذا عرابى بالذات ؟

لماذا يعود محمود سامى البارودى من المنفى فيستقبل بترحاب ، ويستقبله الخديو عباس حلمى على الفور ، ويأمر بأن ترد له جميع أملاكه وأن تعاد له حقوقه المدنية..(١)

(١) محمد التابعى . مقال بأخبار اليوم عدد ٧ — ٩ — ١٩٦٣ .

أما عرابى فيرفض الخديو لقاءه

لعل السبب أن محمود باشا البارودى كان شركسياً .. أما عرابى ففلاح .. رمز لتمرد الفلاحين .. ويجب أن يظل وإلى الأبد مصلوباً على شجرة التعذيب ليلقن الفلاحين على مر العصور درساً لا ينسى ..

ويظل عرابى مصلوباً حتى الآن .. نعم حتى الآن .

فحتى بعد ثوره يوليو وبعد كل التكريم الذى ناله عرابى تظل كثير من الحقائق مطموسة . وكثير من الشتائم لاتزال تكال .. وكتب التاريخ لاتزال مليئة بالتهم والافتراءات والخداع .

وإذا كان سليم خليل نقاش — وهو خائن — قد خصص عشرات بل مئات الصفحات فى كتابه « مصر للمصريين » للهجوم على عرابى ..

وإذا كان قد أورد كل ما استطاعت الرجعية والاستعمار والباشوات الحاقدون أن يلصقوه بعرابى من مطاعن وهجمات .

وأورد صوراً عديدة لجلسات مليئة بالرعب عقدها الباشوات الأتراك والمصريون إبان الثورة العرابية وهم يرددون همساً مقالات وقصائد مليئة بالشتائم .

قصائد جادت بها قرائح باشوات من أمثال مصطفى باشا صبحى الذى سمى قصيدته « حقوق المقال فى مثالب البغاة الجهال » وقال فيها :

تبين عقبى كل معتـــدى
وأمسى العرابى وهو بالذل مرتدى

ويعير الضباط الفلاحين قائلا :

فأصبحتم أصحاب سيف ومدفع
وللفأس والشادوف وصمات باليد ..

.. أما قدرى بك التركى فقد كان أكثر حقداً على عرابى .. وكانت قصيدته أكثر وقاحة .

أوارى فى حـــديثى ما أوارى
ولـكن ضاق عن سرى دثارى
فقد شاعت هنا أعمــال سوء
فما يجدى بها قصدى التوارى
ألمــا يكفنا ســكان مصر
رعتنا الناس من وحش البرارى
تبعنــا جاهــلا فظاً غليظاً
وقمنا كلنا فى أخذ ثار
وما تبقى إذا كنــا تبعنــا
جهولا أحمقا مثــل الحمار
وإذ يلك زاد جسما ليس علما
فاعظم عنه عامود السوارى
كل هــذا الجقد كان يتردد همسا .

وتحت رايات الخيانة التى صاغها سليم نقاش كتاباً يؤرخ فيه للثورة العرابية ..(١)

ولم يكن هذا غريباً ولا مستبعداً من الباشوات ولا من سليم نقاش . . لـكن الغريب كل الغرابة أن تمتد موجة العداء والحقد التى غذاها المستعمرون لتصبغ كثيراً من كتاباتنا التاريخية ولتطمس كثيرا من الوقائع والحقائق ..

الغريب كل الغرابة أن يظل عرابى مصلوباً حتى الآن على نفس شجرة العداء والحقد التى أنبتها الاستعمار . . أن يصلب بأيدينا نحن . . بأيدى وطنيين مخلصين كعبد الرحمن الرافعى شيخ التاريخ المصرى الحديث بلا منازع .. وصاحب المرجع الأساسى لتاريخنا . .

---

١ — سليم خليل نقاش مصر للمصريين . طبعــة مطبعة المحروسة سنة ١٨٨٤ (خمسة أجزاء) .

فعرابى فى نظر الرافعى «جاهل» و «متهور» و «جبان» و «ليس مجاهداً»(١) .

هكذا بالحرف الواحد .

أمّا نزوعه للثورة فلا يرجع إلى إحساس وطنى أو شيء من هذا القبيل وإنما لمجرد أن «أصله بدوى ومعلوم أن أكثر البدو يميلون إلى التمرد والثورة على أنهم سرعان ما ينقلبون خاضعين إذا أنسوا القوة من جانب خصومهم وهذا مع الأسف ما انتهى إليه عرابى»(٢) .

وعرابى «لم يكن ضابطاً كفئاً يعتمد عليه فى قيادة الجيوش والمعارك بل هو ضابط من تحت السلاح كان فرداً أو نفراً»(٣) .

ثم أن ذكاءه «كان محدوداً ولم يكن له من الاستعداد السياسى مما يجعله أهلا لقيادة الثورة»(٤) .

واعتقد أن من حق عرابى علينا أن نقدم صورة أكثر صدقاً له ولثورته .. وأن من حق الناس فى بلادنا أن يروا صورة صحيحة لفترة من أعز وأهم وأغنى فترات تاريخهم ..

وأن من حق الفلاحين الذين ثاروا .. واستشهدوا .. واستبسلوا فى غمار الثورة العرابية ألا يوصموا جميعاً بالجبن وألا يتهموا ومن رجل كالرافعى بأنهم «لم يبرهنوا على شجاعة ما فى ميدان القتال .. فخلت الواقعة من البطولة التى كان يمكن أن تغير من مصير المعركة أو تخفف من غضاضة الهزيمة» ..

أن من حقهم وحقنا أن نبذل بعض الجهد بحثاً عن الحقيقة ..

---

١ - عبد الرحمن الرافعى الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى . الطبعة الثانية ١٩٤٩ صفحات ١١٢ - ٢٨٠ - ٤٣٩ .

٢ - المرجع السابق ص ٨٣ .

٣ - المرجع السابق ص ٨١ .

٤ - المرجع السابق ص ٨٢ .

الحقيقة التى كلفت عرابى الكثير وهو يبحث عنها .. وكلفته الكثير عندما تاهت فى خضم الاكاذيب .

لكننا لكى نصل إلى الحقيقة الأصيلة علينا أن ندرس الواقع الموضوعى الذى تولدت منه الثورة العرابية ..

يتعين علينا أن نقدم صورة متكاملة لتطور ونمو القوى الاجتماعية المختلفة والصراعات والتحالفات التى قامت بينها .

صورة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى طرأت على وضع كل من هذه القوى الطبقية والتى حددت موقفها مع الثورة .. أو ضدها ..

وبدون هذه الدراسة المبدئية .. بدون التعرض لتطور أشكال الملكية الزراعية ولحالة التجارة وثروات التجار .. ونفوذ الأزهر .. ودور الخليفة التركى والقروض والديون والأجانب .. ستظل الصورة ناقصة وتفتح المجال أمام سوء الفهم وسوء القصد .

ومن هذه النقطة .. من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى عاصرت الثورة وسبقتها .. من التكوينات الاجتماعية والطبقيـــة التى نبعت منها الثورة وعرابى معاً .. من هذه النقطة يتحتم علينا أن نبدأ كى نصل إلى الحقيقة .

.. وهكذا سنحاول

الجزء الأول

القوى الاجتماعية وبذور الصراع

* الأرض .. والحاكم .. والناس
* الفلاح.. جيش الثورة
* المدينة .. موطن الأزهر والتجار وأبناء البلد
* الخليفة التركي .. والمصريون
* الأجانب .. والقروض والتدخل

١

سوف أتكلم طويلا عن مصر . . ففى مصر من الأشياء العجيبة مالا يوجد فى بلد آخر .. أشياء لا تستطيع الكلمات أن تصف مدى غرابتها .

هيرودوت

الأرض والحاكم .. والناس

الأرض فى بلد كمصر القديمة هى المصدر الوحيد للإنتاج تقريباً .. من يمتلكها يمتلك الثروة والسلطة معاً ..

ومنذ البداية أدرك الفراعنة هذه الحقيقة . فكانت الأرض كلها ملكاً لفرعون وحده ومن ثم كانت له السلطة والسيطرة على مصائر البشر جميعاً ، ومن هنا كان حق فرعون فى فرض السخرة على المصريين تابعاً فى حقيقة الأمر من حقه فى ملكية الأرض الزراعية ، وتظل السخرة شكلا من العلاقة الاجتماعية تابعاً ومكملا لملكية السلطان أو الحاكم لكل الأرض .

لكن تسلط الحاكم وسيطرته الفعلية على الأرض والناس مرتبطان بطبيعة الحال بقوته الحقيقية .. فما أن تضعف سلطة الحكومة حتى تهتز حقوقها قبل الحائزين الفعليين للأرض ، وتتحول الحيازة بمضى الزمن إلى شىء قريب من الملكية الفعلية ..

ويأتى الفتح العربى ليجد أن الحيازة قد تحولت فى ظل الضعف الشديد لسلطة الدولة إلى شىء أقرب إلى الملكية .

والفاتحون العرب يحملون تعليمات صارمة من عمر بن الخطاب بألا يتدخلوا فى الشئون الزراعية ، وأن يتركوا الأمور كما هى ؟ .

لكن سادة الأرض لم يكونوا سوى كبار الضباط والأرستقراطيين والتجار البيزنطيين ، وهؤلاء جميعاً طردوا أو قتلوا أو صودرت أملاكهم ، ومن جديد أصبحت الأرض الزراعية فى حالة بحث عن مالك لها (١) .

ويستولى العرب عليها بحق الفتح وتصبح ملكا لبيت المال ويوزع بعضها على كبار قواد الجيش وبعض القبائل التى استقرت فى صعيد مصر .

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع : الأرض والفلاح — إبراهيم عامر . ص ٥١ وما بعدها .

ومنذ هذا التاريخ عرفت الأرض تلك التسميات التى ظلت لصيقة بها لأمد طويل . . الأرض العشورية وهى التى فرض عليها العرب ضريبة تصل إلى عشر المحاصيل وإن كانت تقل عن ذلك فى بعض الأحيان وفقا لما إذا كانت الأرض سهلة الرى أم لا . .

والأراضى العشورية هى أراضى من أسلموا بعد الفتح ، والأراضى التى وزعها بيت المال على القواد أو القبائل العربية .

أما بقية الأرض فقد سميت خراجية نسبة إلى الخراج الذى يتعين على غير المسلمين أن يدفعوه – وكانت الضريبة عليها مرتفعة بحيث تتراوح بين ٢٠ ٪ و ٥٠ ٪ من المحصول(١) .

والحقيقة أن ظاهرة انعدام الملكية الفردية للأرض قد أثرت كثيراً فى التكوين الاجتماعى للمصريين وفى قدرتهم على الصراع من أجل استخلاص حقوقهم .

وهى لهذا ظاهرة تستلفت النظر ، فقد جذبت إليها أنظار كثير من المفكرين العالميين إبتداء من آدم سميث إلى ستيوارت ميل . . إلى ماركس

ويكتب ماركس فى يونيو ١٨٥٣ إلى انجلز قائلا . .

« إن عدم وجود ملكية فردية للأرض هو فى الواقع مفتاح المسألة الشرقية كلها .. ففى هذه المسألة يكمن كل التاريخ السياسى والاجتماعى للشرق .

لكن كيف عجز الشرقيون عن الوصول إلى الملكية الفردية للأرض حتى ولا فى شكلها الإقطاعى .. ؟

إننى أعتقد أن السبب الرئيسى لذلك يرجع إلى المناخ وطبيعة التربة ، وخاصة بالنسبة لتلك المساحات الواسعة من الأراضى الممتدة من الصحراء الكبرى إلى الجزيرة العربية فبلاد فارس والهند وتركستان ثم إلى الهضبة الآسيوية الوسطى .

(١) الأرض والفلاح – المرجع السابق ص ٥٧ .

ففى كل هذه المنطقة نجد أن الرى الصناعى هو الشرط الأول للزراعة وهو أمر لا يمكن أن تقوم به إلا الجماعات المنظمة وخاصة الحكومة المركزية(١) .

وفى مكان آخر يعود ماركس ليؤكد . .

« إن الضرورة الحتمية لاستخدام المياه بطريقة اقتصادية وجماعية هى التى أدت فى الغرب إلى تحول المزارع الفردية فى اتجاه تكوين نوع من الجماعية الاختيارية كما حدث فى أراضى الفلاندر بإيطاليا . . وهى التى تطلبت فى الشرق — حيث المستوى الحضارى متخلف والمساحات شاسعة وتحقيق التجمع الاختيارى مسألة صعبة — تطلبت تدخل القوة المركزية للحكومة ، ومن ثم فقد وقع على كاهل الحكومات فى الشرق واجب اقتصادى هو تنظيم أعمال الرى والصرف »(٢) .

وهكذا ظلت الدولة ممثلة فى الحاكم ، مالكة للأرض ما دامت هى التى تتحكم فى مشاريع الرى والصرف .

والحقيقة أن مثل هذه الملكية كانت ضرورة موضوعية بل أنها هى التى أكدت ضرورة وجود شكل من أشكال الحكم المركزى فى بلد كمصر ، فإن أى انهيار للتحكم المركزى فى مشاريع الرى والصرف كان يستتبع بالضرورة انهياراً عنيفاً فى الثروة الزراعية .

ويظل الأمر كذلك حتى القرن السابع عشر .

ففى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت الأرض توزع على الملتزمين وبعد أن يعقد نوع من المزاد العلنى يمنح الالتزام لمن يتعهد بأن يجمع قدراً أكبر من « الميرى » .

---

(١) ماركس وإنجلز المراسلات المختاره . دار النشر باللغات الأجنبية . موسكو . الطبعة الانجليزية سنة ١٩٥٣ ص ٩٩ .

(٢) ماركس — الحكم الانجليزى للهند — الأعمال المختاره مجلد ١ — ص ٣٤٧ طبعة موسكو الانجليزية سنة ١٩٥٥ .

ويجمع الملتزم الضرائب بنفسه ثم يسدد الميرى . أما الباقى ويسمى « الفائظ » فيحتفظ به لنفسه .

والحقيقة أن الملتزم كان يحكم منطقته بأسلوب شبه إقطاعى ، فهو يملك الحق فى أن يسلح الجباة الذين يجمعون له الضرائب والذين يجمعون له فى نفس الوقت « الفلاحين » اللازمين للعمل « مجاناً » فى « وسيته » .

لكن هذه السمات الإقطاعية لم تشكل فى الواقع نظاماً إقطاعياً متكاملا ، وإن كانت قد طغت إلى حد كبير على حقوق الحاكم فى ملكية الأرض وخلقت بذور الملكية الفردية للأرض .

وفى نهاية القرن الثامن عشر كان حق الدولة فى ملكية الأرض يضعف لسببين :

أولهما :

إن الالتزام أصبح يمتد عاماً ثم لعدة أعوام ، ثم لمدى الحياه ثم أصبح الالتزام وراثياً ، ثم أصبح أقرب ما يكون إلى الملكية الخاصة . ورغم ذلك لم يعترف أحد — رسمياً — بهذه الملكية الخاصة على الإطلاق . .

وثانيهما :

أن كثيراً من الأرض قد أصبح رزقاً وإيجاسيات وأوقافاً(١) .

والحقيقة أن نظام الوقف الذى أدخل إلى مصر فى بدايات الفتح العربى ح فى القرن الثامن عشر سلاحاً فعالا يلجأ إليه الناس لتأكيد ملكية عائلاتهم للأرض .

فما أسهل أن يوقف الإنسان أرضه على جهة خيرية حتى يستحيل على الحاكم أن يقترب منها . . أو يمسها .

---

(١) جبريل باير — تاريخ الملكية الزراعية فى مصر الحديثة من ١٨٠٠ إلى ١٩٥٠ . ص ٣ طبعة جامعة أكسفورد — ١٩٦٢ .

وهكذا كان الوقف سلاحاً لتأكيد الملكية وضماناً ضد اغتصابات الحاكم وتقلباته . . ولا يأتى عام ١٨١٢ إلا ويكون هناك أكثر من ١٠٠ر٦٠٠ فدان وقفاً فى الصعيد وضواحى القاهرة وحدها . . (١)

وبعد الصراع القاسى الذى خاضه محمد على ضد المماليك كانت الحصيلة مساحات شاسعة من الأرض . . تبحث من جديد عن مالك لها . .

ففى البداية قلم محمد على أظافر الملتزمين . . ففرض ضرائب مباشرة على الفلاحين واستولى على جزء من « الفائظ » .

وفى ١٨٠٨ صادر أراضى الملتزمين الذين لم يسددوا الضرائب المطلوبة .

وفى ١٨٠٩ فرضت الضريبة على « وسايا » الملتزمين .

وفى مارس ١٨١١ كانت مذبحة المماليك بداية حقيقية لتنفيذ برنامج محمد على الإصلاحى فى مجال الزراعة .

وبعد أن هزم مماليك الصعيد فى ١٨١٢ وهربوا إلى السودان أصدر محمد على قراراً بمصادرة « التزاماتهم » ، وبالمناسبة تقرر مصادرة جميع أراضى الملتزمين فى كل الصعيد . .

ولم توزع هذه الأرض المصادرة على ملتزمين جدد كما كان متبعاً لكنها عادت من جديد لتصبح ملكاً خالصاً للدولة وسميت « المضبوط » لكن الملتزمين كانوا من القوة ، وكانت حقوقهم فى حيازة الأرض من الرسوخ ، بحيث اضطر محمد على أن يمنحهم دخلا سنوياً مساوياً لما كانوا يحصلون عليه من « فائظ » .

وفى هذه الأثناء كانت الغنيمة تسيل لعاب الكثيرين ويؤكد الجبرتى فى تاريخه(٢) أن رجال العسكرية والعلماء ظلوا يطالبون « محد على » بتوزيع الأرض على ملتزمين جدد غير أن « محمد على » ظل يسوف ويراوغ . .

---

(١) تاريخ الجبرتى الجزء الرابع ص١٤١ .

(٢) الجبرتى الجزء الرابع ص ٢٢٨ — ٢٤٤ .

لكن هذا الموقف من جانب محمد على لم يبق بلا رد فعل . .

فالفلاح الذى خضع دائماً لسوط الملتزم بدأ يتمرد عليه مستنداً إلى أنه أصبح فلاح « الباشا » .

ويروى الجبرتى كيف أن الفلاحين بلغت بهم الجرأة حد الامتناع عن العمل فى « أوسية » الملتزمين السابقين . . بل أن الفلاح كان يرد على تابع الملتزم السابق قائلا « قل لصاحبك أن يبحث لنفسه عن فلاح غيرى . . فأنا مشغول . . لقد ذهبت أيامكم وأنا الآن فلاح الباشا » .

لكن « محمد على » يعجز عن زراعة كل الأرض بنفسه . . فيبدأ من جديد فى توزيعها :

* « أبعاديات وشفالك » لأسرته وكبار رجال حاشيته وتبلغ مساحتها ٢٠٠ر٠٠٠ فدان . .

* « أوسية » للملتزمين ومساحتها ١٠٠ر٠٠٠ فدان سارع أصحابها إلى وقفها حتى لا يحرم أولادهم من ريعها . .

* مسموح المشايخ « لمشايخ القرى » ومساحتها ١٥٤ر٠٠٠ فدان .

* « الرزقة » ومنحت لتلك الطبقة الجديدة التى نبتت بسرعة فى ظل حكم محمد على وهى جماعات المثقفين المصريين والأجانب من معلمين ومهندسين وأطباء وعسكريين ومساحتها ٦٠٠٠ فدان .

* أما الباقى فقد ترك للفلاحين يزرعونه وأعطى كل فلاح من ٣ — ٥ أفدنة . لكن الفلاحين كانوا يزرعون الأرض على « المشاع » وهم مسئولون على (المشاع) أيضاً عن الضرائب المربوطة على القرية كلها . .

وقد اهتم كثير من المؤرخين بهذه الخطوة الهامة التى اتخذها محمد على ، بل أن أحدهم يقول إن محمد على قد حاول أن يسلك نفس الطريق الذى سلكته الثورة الفرنسية(١) .

---

(١) السير فالنتين شيرول المشكلة لمصرية » طبعة ماكيلان لندن ١٩٢٠

والحقيقة أن هذه الخطوة الجريئة من جانب محمد على كانت علامة طريق هامة . .

فالمصريون « مشايخ البلاد » والمثقفون أصبحوا ولأول مرة حائزين فعليين لجزء من الأرض . .

صحيح أن « محمد على » قد التهم لنفسه وأسرته وحاشيته التركية وخبرائه الأجانب مساحات هائلة ، لكنها كانت بداية . . وبالتدريج ومع حاجة محمد على إلى الاعتماد على المثقفين المصريين — بعد أن خانه الأجانب أو كلفوه غالياً — ومع استطاعة البعض منهم أن يثبت كفاءة عالية ، بدأت الإنعامات السامية تنهال عليهم لتكون منهم طبقة جديدة من ملاك الأرض المصريين . .

ويقدم لنا زكى باشا مبارك فى «الخطط التوفيقية» نماذج لهؤلاء المصريين . الذين عملوا فى سلك الخدمة المدنية فى عهد محمد على فأصبحوا ملاكاً كباراً . .

— فهناك رفاعة رافع الطهطاوى وهو من أسرة فقيرة أنعم عليه محمد على باشا بـ ٢٥٠ فداناً فى طهطا ثم يأتى سعيد باشا ليمنحه ٢٠٠ فدان أخرى ثم إسماعيل باشا ٢٥٠ فداناً ثالثة ..

ويشترى رفاعة ٩٠٠ فدان ويقيم مبانى وعمائر وفى عام ١٨٨٠ يكون ورثته مالكين لـ ٢٥٠٠ فدان (١) .

— وقدم لنا على مبارك نموذجاً آخر هو ابراهيم بك النبراوى .

الذى ترقى فى الرتب الديوانية إلى أن بلغ رتبة المتمايز ، وفى أول أمره أرسله أهله إلى مكتب بلده وتعلم فيه الخط وبعض القراءة ثم تعلق بالبيع والشراء وترك المكتب وأرسلوه مرة إلى المحروسة يبيع بطيخاً فلم تربح تجارته بل لم يحصل على رأس المال فخاف من أهله ولم يرجع لهم ودخل الأزهر واشتغل بالقراءة ، وفى تلك المدة طلب من الأزهر شبان برغبتهم لتعلم الحكمة

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع : الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة تأليف الجناب الاجد والملاذ الاسعد سعادة على باشاه مبارك الطبعة الأولى بمطبعة بولاق سنة ١٣٠٥ .

فرغب ودخل مدرسة أبي زعبل فأقام بها مدة وترقى إلى رتبة ملازم ثم تعلقت الإرادة السنية بإرسال جماعة إلى بلاد فرنسا فسافر إلى هناك ..

.. وبعد عودته ترقى إلى رتبة يوزباشي بوظيفة خوجة (معلم) بمدرسة الطب في القصر العيني .. ولنجابته وحسن درايته في فنه اختاره العزيز محمد على باشا « حكيمباشي » لنفسه وقربه وتخصص به وبلغ رتبة أميرالاى وكثرت عليه إغداقات العزيز وانتشر ذكره وطلبته الفاميليات والأمراء .. ولما مات خلف ألفاً وسبعمائة فدان »(١)

لكن الأمر لم يقتصر على إغداقات الباشا على المثقفين ولا على مسموح المشايخ بل إن الأراضي التي استحوذ عليها الباشا من المماليك وحاول أن يزرعها بنفسه ، هذه الأراضي ذاتها أخذت تحت ضغط فشل محاولات محمد على ، وتحت ضغط متطلبات الحرب والجيش والمصانع للأموال ، وتحت الضغط الاجتماعي الذى بدأ المستنيرون المصريون يمارسونه عن طريق تقربهم إلى الوالى أو حاجة الوالى إليهم .. بدأت تنتقل — ولأول مرة أيضاً — إلى أيدى المصريين . الأمر الذى يؤكد أنهم قد أصبحوا — إلى حد ما — قوة ذات أثر . .

ويضطر محمد على فى نهاية حكمه إلى أن يعيد الالتزام فى ثوب جديد هو « العهدة » حيث تمنح الأرض عهدة لشخص يتعهد بجمع الضرائب منها .. فثمة طبقة جديدة من كبار الرسميين والضباط والتجار الذين أثروا خلال سنوات النهضة التى شهدتها مصر أيام حكم محمد على ، هذه الطبقة أصبحت تمتلك ثروات هامة تمكنها من مديد العون إلى محمد على الذى كان يعانى من الضغط الخارجى والعجز المحلى وانهيار الصناعة والحاجة إلى المال . وفى ٢٣ مارس ١٨٤٠ أعلن محمدعلى نظام « العهدة » ووزعت مساحات تتراوح بين ٣٠٠ — ٨٠٠ فدان على متعهدين كانوا فى حقيقتهم ممثلون للفئات الغنية

(١) الخطط الجديدة . المرجع السابق ج ١٧ ص ٤ .

من المجتمع .. كبار ضباط .. تجار .. موظفون .. أجانب.. ومن هذا الباب نفذ كثير من المصريين .. (١) .

وهنا يبدأ التاريخ الحقيقي للطبقة الجديدة من ملاك الأرض المصريين الذين قدر لهم أن يلعبوا دوراً كبيراً في الثورة العرابية ..

والغريب أن الأسماء .. تبقى كما هي نفس الأسماء تتردد منذ محمد علي.. حتى إسماعيل .. حتى الثورة .. حتى ما بعد الاحتلال .. بل وحتى أيامنا هذه ..

نفس الأسماء ..

ـ فعلي البدراوي كان مجرد تاجر عطور منحه محمد علي عهدة سمنود ، ثم جاء سعيد ليمنحه ٤٠٠ فدان أخرى في سمنود ومكنه ثراؤه من أن يشتري مساحات أخرى من الأرض ، وعندما مات ١٨٦٧ كان يمتلك ٤٠٠٠ فدان(٢).

وفي ١٩٥٢ استولى الإصلاح الزراعي من عائلة البدراوي على ١٦٫٠٠٠ فدان .

ـ وسالم باشا السلحدار كان حاكم الصعيد أيام محمد علي ، أخذ عهدة البلينا ، وعهدة قرية فازاره (٢٢كم جنوب منفلوط) (٣) ، وفي ١٩٤٥ كان وقف حنيفة السلحدار يمتلك ٦٢١ فداناً في البلينا (٤) و٧٩٠ فداناً في فازاره (٥) .

ـ وثمة اسم ثالث لا زال موجودا حتى الآن .. الشواربي منحه محمد علي عهدة قليوب ، ومنح اسماعيل ابنه محمد بك الشواربي مزيداً من الأرض وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت ٤٠٠٠ فدان من مجموع زمام قليوب

---

(١) الخطط الجديدة ـ المرجع السابق ـ ج ١٢ ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) الخطط الجديدة ، المرجع السابق ـ ج ١٠ ص ٧٢ ـ ١٠٠ .

(٣) الخطط الجديدة، ج ١٤ ص ٧٥ .

(٤) جريدة الاهرام عدد ٢٣ مايو ١٩٤٥ .

(٥) جريدة الاهرام عدد ١٢ أغسطس ١٩٤٧ .

البالغ ٧٠٠٠ فدان مملوكة لأسرة الشواربى وحدها ، ولعبت أسرة الشواربى دوراً هاماً ضد الثورة العرابية ، ففى أيام الثورة كان قصرها مركزاً للثورة المضادة .

وكان محمد باشا الشواربى من أوائل الإقطاعيين الذين ضربوا الثورة من الظهر ، وعندما اشتعلت الثورة واتخذت جريدة الأهرام جانب الخديو وصادرها العرابيون ، فتح « الشواربى » منزله الكائن فى شارع الساحة بمصر لوكيل جريدة الأهرام وكان يرسل معه خدمه يستلمون أعداد الأهرام من السكة الحديد ، فقد كانت تصدر فى الإسكندرية ويحملونها إلى داره وتوزع من هناك . . كما أنه أول من حافظ على حياة أديب إسحق إذ آواه فى منزله شهرين والعرابيون يبحثون عنه ويظنونه فى بيت سلطان باشا (١) .

وهكذا . .

والحقيقة أن العهدة لم تكن عودة للالتزام ، فالمتعهد لا يجمع الضرائب كما يشاء وإنما كما يحددها الوالى ، لكنه كان يمتلك الحق فى تسخير فلاحى عهدته فى أرضه .

وهكذا بدأت الطبقة الجديدة تمارس علاقاتها الإقطاعية على أوسع نطاق و توسع من ملكياتها منتهزة حاجة محمد على إلى المال وعجز الفلاحين عن دفع الضرائب ، وثمة قصة يرويها جبرييل باير فى كتابه ، تقول :

«لقد جند جميع أهالى قرية سكوله مركز المنيا فى الجيش وظلت الأرض بلا زراعة وتراكمت عليها الضرائب لعدة سنوات حتى تقدم أحد الموظفين وهو على أفندى متعهداً بدفع مجموع هذه الضرائب خلال ثلاث سنوات

---

(١) زكى فهمى صفوة العصر فى سيرة مشاهير رجال مصر ، المجلد الأول . مطبعة الاعتماد ١٩٢٦ ص ٢٩١ .

واستولى على افندى على زمام البلدة ومساحتها ١٠٠٠ فدان ، منها ١٥٠ فداناً معفاة من الضرائب » (١).

والحقيقة أن أحداً لا يعرف بالضبط مساحة الأراضى العهدة لكن «باير» يؤكد وفقاً لحساباته أن مساحتها لم تكن تقل أيام محمدعلى عن ١٫٢٠٠٫٠٠٠ فدان منها ٣٠٠٫٠٠٠ فدان لأفراد أسرة محمد على .

والمساحة الباقية توضح حقيقة المجال الذى كانت تمارس فيه الطبقة الجديدة نشاطها .

لكن السلم الطبقى الحديث التكوين كان يحتوى على مراتب عديدة ، فبعد المتعهدين (كبار الملاك) كان هناك مشايخ البلد الذين اعتمد عليهم محمد على فى جهازه الإدارى ومنحهم « مسموح المشايخ ».

وإذا كان المتعهدون أناساً طارئين على القرية ، فإن المشايخ هم رؤساء الأسر الغنية المرموقة فى الريف وذات المكانة الاجتماعية التى منحها محمد على مزيداً من المكانة والهيبة بما منحها من أرض ونفوذ إدارى .

ويورد على مبارك فى الخطط التوفيقية أسماء كثير من هؤلاء المشايخ. أسماء ظلت هى الأخرى تتردد عبر سنوات عديدة لتصل إلينا وهى تحتفظ بمزيد من الرنين والنفوذ .

— أبومحفوظ شيخ بلدة الحواتكة (أسيوط) « وقد ظلت هذه الأسرة معروفة طوال عدة أجيال متتالية ولها أملاك شاسعة تبلغ عدة آلاف من الأفدنة من الأراضى الخصبة وكان أهل القرية قبضتهم (٢) .

— ثم عائلة أبى حشيش فى المرصفا قليوبية . .

— وعبد الحق من الديوانة أسيوط. .

— الشريعى من سمالوط المنيا . .

---

(١) المرجع السابق ص ٣ ، ٥ .

(٢) الخطط جـ ١٠ ص ٨٤ .

ومن بين المشايخ كل بلدة كان المدير يعين رئيسا للبلدة يسمى شيخ البلد، وبالرغم من أن هذا المنصب كان منصباً ثانوياً فى السلم الإدارى إلا أنه كان مقياساً للثراء والسطوة فى القرية .

وكان الشيخ ذا سلطة أبوية على القرية كلها وهو المسئول عن جباية الضرائب وجمع الأنفار للقرعة العسكرية وتجهيز عمال السخرة ، ولا شك أن كل هذه السلطات كانت تمنحه نفوذاً لا حدود له على الفلاحين .

فلما جاء اسماعيل أبقى على مشايخ البلاد لكنه جعل فوقهم فئة من أكثرهم ثراء هى العمد .

ويؤكد الدكتور عبد العزيز رفاعى « أن العمد أيام اسماعيل كانوا من أكثر الملاك المصريين ثراء ونفوذاً فى الريف وقد كانوا يمثلون عصب النظام الإدارى وزعامة الملاك الزراعيين » . (١) .

ومن خلال هذا المنصب تبدأ طبقة كبار الملاك الزراعيين المصريين فى ممارسة عملية استغلال واستنزاف الفلاحين الفقراء .

فالعمدة ليس فقط أكبر مالك للأرض ، لكنه أيضاً ممثل الجهاز الإدارى بكل جبروته وقوته : السخرة ، القرعة العسكرية ، الضرائب .

وهو يشرف على عمليات بيع الأراضى ويحصل الضريبة المفروضة عليها ويحتجز لنفسه نصيباً منها ، وفى كثير من الأحيان كان العمد يقومون بإقراض الفلاحين بالربا الأمر الذى ضاعف من ملكيتهم .

« وفى كثير من الأحيان كان العمدة يتناسى أن يبلغ عن وفاة شخص بلا ورثة أما أملاكه التى تكون من حق الدولة فإنه يستولى عليها أو يمكن أشخاصاً آخرين من الاستيلاء عليها . وفى أحيان كثيرة أخرى كان الفلاحون يهجرون

---

(١) د. عبد العزيز رفاعى ، فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة . الموسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ص ١١ .

الأرض هرباً من الضرائب الفادحة فيستولى العمد على أراضيهم وثمة عمدة هو « خليل الخولى » كون ثروته كلها من أراضى الهاربين من الضرائب ومن خداعه للفلاحين الفقراء الذين لم يكونوا بقادرين على الدفاع عن أنفسهم حيال سطوته ، والحقيقة أن العمد بالرغم من منصبهم الثانوى إلا أنهم كانت لديهم فرصاً أكثر من كبار الرسميين فى توسيع ملكياتهم الزراعية على حساب ملكيات الفلاحين الفقراء » (١) .

والحقيقة أن حالات الهرب كانت كثيرة جداً إلى الحد الذى جعلها مصدراً أساسياً من مصادر زيادة ملكيات المشايخ والعمد .

فعندما ألغى عباس نظام العهد وأجبر الفلاحين على سداد الضرائب المتراكمة عليهم بسبب إهمال أو عجز المتعهدين . زادت حالات الفرار زيادة كبيرة .

وزادت مرة أخرى فى عهد سعيد .

زادت إلى الحد الذى بلغت فيه المساحة المهجورة فى الدقهلية والشرقية وحدها فى سنة ١٨٥٥ ما قدره ٤٦٫٨٦٦ فداناً .

وفى سنة ١٨٥٦ زاد الطين بلة عندما أعيد توزيع الضرائب على الأرضى الخراجية فرفعت على الأراضى القليلة الخصوبة من الربع إلى الثلث .

. . بل أن سعيداً بدأ يحرم الفلاحين حتى من حقهم فى استعادة الأرض التى هجروها بعد مضى ١٥ سنة غير أنه كان يتحتم على مشايخ البلاد أن يمنحوا الفلاح العائد بعد ١٥ سنة مساحة تتراوح بين ½ فدان و ٣ أفدنه ، . . ثم جاء قانون الأرض الصادر فى ١٨٥٨ ليحرم الفلاح الذى يهجر أرضه من كافة حقوقه بعد خمس سنوات فقط . (٢)

---

(١) المرجع السابق .

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع أرتين « الملكية العقارية فى مصر » المرجع السابق ص ٢٨٠ وما بعدها .

وفى سنة ١٨٧٩ كتب بورج وهو نائب أحد القناصل يقول « لقد سمعت من مصادر متعددة فى القليوبية أن الفلاحين يعانون من ضغط المشايخ عليهم إلى الحد الذى يدفعهم إلى ترك ملكياتهم الصغيرة ليشتغلوا كعمال لدى أحد الذوات أو الأوربيين على أمل أن يعيشوا فى كنف حمايته . . »

ومرة أخرى نعود إلى الأسماء فهى أكثر دلالة من أى شىء آخر فإن باير يلاحظ (١) إن كثيراً من الإسر ظلت تحتكر منصب العمدة لسنوات عديدة ويحشد مجموعة من الأسماء .

الشريف من أبيار (غربية) الهوارى من ترسا (الفيوم) الجيار من خربتا (بحيرة) شعير من عشما (منوفية) الأترى من أخطاب (دقهلية) .

ويقول باير إن كثيراً من العمد كانوا ذوى ملكيات كبيرة جداً ويورد أيضاً أمثلة كثيرة فعلى محمود عمدة الرحمانية (بحيرة) كانت مساحة الأرض التى وقفها سنة ١٨٧٠ ١٠٦١ر١ فدانا .

وأحمد الشريف عمدة إبيار (غربية) وقف فى سنة ١٨٦٦ ١٠٦٧ فداناً وحبيب سالم عمدة شجرة الشعراء (دقهلية) وقف فى سنة ١٨٨٠ ٨٧٥ فداناً (٢) . . وهكذا .

وإذا كنا قد تعمدنا أن نذكر كثيراً من الأسماء فإن ذلك لم يكن لمجرد تذكير القارىء — أنها وإلى حد كبير هى الأسماء التى تردد حتى الآن

لكننا كنا نريد أن نصل إلى نتيجة غاية فى الأهمية بالنسبة لموضوع هذا الكتاب .

فإن نفس هذه الأسماء هى التى سيطرت على الهيئات النيابية طوال هذه الفترة من تاريخ بلادنا . وأهم من هذ كله أنها كانت تسيطر على مجلس النواب الذى شكل سنة ١٨٨١ ، وهو المجلس الذى لعب فى تاريخ مصر . وفى مجريات الأمور فى الثورة العرابية اكبر الأثر .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣ .

(٢) باير المرجع السابق ص .

ولنستعرض الآن أسماء النواب :

محمد بك الشوارى ، إبراهيم أبو حشيش (القليوبية) ، على بك شعير ، السيد الفقي حسين أبو حسين (المنوفية)، أحمدبك الشريف ، مصطفى أبو العز (الغربية) سليمان باشا أباظة ، أحمد بك أباظة (الشرقية) ، خليفة الهوارى (الفيوم) ، السيدعبد الحق ، محفوظ رشوان (أسيوط)، حسن باشا الشريف (المنيا) ، محمد أبوسحلي (قنا) . . (١)

أليست هى نفس الأسماء .

لكن الأرض لم تكن وقفاً على هؤلاء وحدهم. ففى بلد كمصر حيث الأرض هي المصدر الأساسى بل والوحيد للسلطة والجاه نجد أن كثيراً من الأسر . . لاتلبث أن تتجه نحو تملك الأراضى بمجرد أن تكون لنفسها بعضاً من الثروة ويورد مبارك أمثلة لهذا الاتجاه الذى ظل سمة مميزة الفئات البرجوازية فى مصر .

فهناك مثلا أسرة الهجين « فالحاج مصطفى الهجين كان فى مطلع القرن تاجراً كبيراً شديد الثراء وكان يمتلك كثيراً من الأموال والأملاك (لاحظ الفرق بين الأملاك والأطيان) وكان أبنه الحاج محمد الهجين هو الآخر أحد التجار« المعتبرين » أما حفيده الأمير حسن بك الهجين الذى توفى فى أعقاب تولى إسماعيل للعرش فقد كان أكثر ثراء وشهرة من جده وكان يمتلك كثيراً من الأموال والأملاك « والأطيان » وكان هو الذى أضاف « أطياناً » إلى أملاك الأسرة » (٢) .

وقبل أن يتوفى وقف أملاكه وأطيانه . . وفى سنة ١٩٥٠ كان وقف

---

(١) راجع القائمة الكاملة فى كتاب ، الثورة العربية والاحتلال الانجليزى – عبد الرحمن الرافعى – الطبعة الثانية سنة ١٩٥٩ ص ١٧٢ وما بعدها .

(٢) الخطط الجديدة ج ٣ ص ٥٤ – ٥٥ .

الهجين يضم ١٫٤٢٥ فداناً فى البحيرة والدقهلية والغربية بالإضافة إلى عقارات كثيرة بالقاهرة (٤) .

ويصف مبارك منفلوط فى سنة ١٨٨٠ فيتحدث عن حسن الطرزى وهو تاجر ثرى كان والده واحداً من التجار المحترمين وقد زاد حسن من ثروة أبيه وكان هو الذى ضم اطياناً كثيرة إلى أملاك الأسرة . (٢)

وفى سنة ١٩٥٥ كان وقف الطرزى يضم ٢٫٣٧٩ فداناً (٣) .

لكن الصورة لم تكن وردية تماما بالنسبة للملاك المصريين فهم ، وبرغم ثرائهم واغتصابهم . . وسلبهم كانوا يتحركون فى شريط ضيق من الأرض ، فالأسرة العلوية وكبار الرسميين الأتراك . . والجوارى والأتباع كانوا يستحوذون فى واقع الأمر على مسلحات هائلة . .

وإذا تكلمنا عن الشفالك وهى أراضى الأسرة المالكة (كلمة شفلك مشتقة من الكلمة التركية jeft ومعناها قوة الثور . . والشفلك هو مساحة الأرض التى يستطيع الثور أن يحرثها طوال العام) نجد أن :

شفلك سعيد باشا بالخزانة	٢٠٫٠٠٠ فدان
شفلك إسماعيل بالروضة	١٨٫٠٠٠ فدان
شفلك توفيق بأشمنت	١٥٫٠٠٠ فدان

وفى سنة ١٨٤٠ كانت الأسرة المالكة تمتلك فى الغربية والشرقية وحدهما ٣٧٠٫٠٠٠ فدان .

ولنحاول أن نقدم مظهراً آخر من مظاهر استحواذ الأسرة المالكة على الأرض . .

---

(١) جريدة الأهرام عدد ٩ يوليو ١٩٤٤ ، جريدة المصرى عدد ٢٠ مارس ١٩٥١ .
(٢) الخطط الجديدة ج ١٥ ص ٦٩ .
(٣) أهرام ٢٥ سبتمبر ١٩٤٧ .

فبارك يورد فى الجزء التاسع عشر من كتابه «الخطط الجديدة» سرداً للترع والرياحات فى مصر . . ويورد بالمناسبة بياناً بالوابورات المركبة عليها . . وأسماء ملاكها .

ولاشك أن ملكية هذه الوابورات دليل على ملكية الأراضى الزراعية المركبة عليها .

ولنأخذ مثالا واحداً :

ناحية بيلا

عدد الوابورات	قوتها بالحصان	اسم المالك
٢	٢٠	المرحومة والدة باشا
٢	٣٢	المرحومة توحيدة هانم
١	١٦	فاطمة هانم
١	٨	جعفر باشا
١	٨	على باشا شريف
١	١٢	والدة باشا
١	٨	ذو الفقار باشا

وما من مصرى واحد فى كل هذه الناحية . سوى البدراوى عاشور : يمتلك وابوراً قوته ٢ حصان (١) .

ويقدم لنا باير فى كتابه تاريخ الملكية الزراعية فى مصر كشفاً بأملاك بعض أفراد أسرة محمد على أيام إسماعيل (٢) .

الأميرة الوالدة	١٤٤ر٩٢٧ فداناً
محمد توفيق باشا	٣١ر٠٩٧ فداناً

(١) الخطط الجديدة المرجع السابق ج ١٩ ص ٢ وما بعدها .

(٢) ص ٤٢ .

حسين كامل باشا	٢١٨ر٢٥ فداناً
الأميرة توحيدة هانم	٠٩٤ر٢٠ فداناً
الأميرة فاطمة هانم	٤٧٧ر٢٨ فداناً
الزوجة الأولى للخديوى	٣٨١ر٢٠ فداناً
الزوجة الثانية للخديوى	٦٠٥ر٤١ فداناً
الزوجة الثالثة للخديوى	٣١٢ر١٦ فداناً

ويمضى الكشف ليصل المجموع الكلى ٧٢٩ر٤٢٥ فداناً فإذا أضيف إليها ٦٩٩ر٥٠٣ فداناً وهى مساحة الأرض المملوكة للخديوى إسماعيل اتضحت ضخامة المساحة التى كانت تملكها الأسرة المالكة وحدها .

ولنستخدم مظهر ملكية الوابورات للحديث عن ظاهرة أخرى هى اتجاه كثير من الأجانب لتملك الأرض .

فعلى ترعة الباجورية وفى مركز سبك وحده نجد أن هناك الوابورات التالية :

عدد الوابورات	قوتها بالحصان	المالك
١	١٤	ناحية شبرابلوله : الخواجه ديمترى دونيكه وشريكه كومبيل .
١	١٢	ناحية دكما : الخواجه اصطفان أوفراكى المقيم ببندر شبين .
١	١٢	ناحية سرس : اصطفان أوفوراكى السابق الذكر
١	١٠	ناحية سنجرج : الخواجة اصطفان المقيم ببندر منوف .

ويؤكد باير فى كتابه السابق الإشارة إليه أن الأجانب كانوا يمتلكون فى سنة ١٨٨٧ — ١٨١ر٢٢٥ فداناً(١) .

والآن لعلنا نجحنا أن نقدم رسماً كروكياً لخريطة الملكية الزراعية فى مصر مبرزين القوى الاجتماعية التى نمت بسرعة غير عاديه واحتلت جزءاً من من قمة السلم الاجتماعى وكان احتلالها لهذا الجزء من القمة نذيراً بتطورات خطيرة .

لكن المستقبل أمام الملاك المصريين الجدد بدا لفترة من الزمن وكأنه مفتوح بغير حدود فإن مشروعات الرى والصرف وشق الترع التى كلفت الفلاح مئات بل آلاف الأرواح وسحقته تحت وطأة السخرة والكرباج والجوع كانت بداية لازدهار حقيقى فى مجال الزراعة .

ثم هناك أيضاً القطن الذى أصبح بالتدريج محصولا رئيسياً .

وتزداد مساحة الأراضى المزروعة قطناً ويرتفع المحصول المصدرمن ٣٥٠ ألف قنطار سنة ١٨٥٠ إلى ٢ مليونى قنطار سنة ١٨٦٥ ثم إلى ٣ ملايين عام ١٨٨٠(٢) .

والأسعار ترتفع هى الأخرى فى جنون نتيجة للحرب الأهلية الأمريكية؛

« فعلى الرغم من أن المحصول المصرى من القطن كان فى سنة ١٨٦٣ أكثر من أى عام مضى إلا أن « أسعار القطن الجميل فى ليفربول ارتفعت من ٢١ بنساً للرطل فى يوليو إلى ٢٩ $\frac{1}{4}$ فى أكتوبر .. وكانت أسعار القطن فى الإسكندرية أعلى من ليفربول . وفى داخل البلاد كانت الأسعار أعلى من أسعار الإسكندرية وهو انعكاس واضح " التركيب المعتاد للأسعار الأمر الذى يوضح — أفضل من أى شىء آخر — النزعة التضخمية للسوق المصرية . لقد كانت البلاد منطلقة فى نشاطها .. وابتداء من الوالى الذى كان يملك حوالى ٨ أو ٩ ملايين رطل من القطن ويأمل فى أن يحقق دخلا من

---

(١) ص ٦٣ .

(٢) مصر من الاقطاع إلى الرأسمالية . مقال د . محمد أنيس . مجله الكاتب . يوليو ١٩٦٥ ص ١٠٦ .

هذا المصدر وحده حوالى مليون جنيه ، إلى الفلاحين الذين أصبحوا قادرين على أن يأكلوا الخبز الأبيض واللحم وأن يشتروا الجوارى من النساء للعمل المنزلى والمتعة .. كان كل امرىء مرتبط بزراعة أو تجارة الذهب الأبيض الجديد يحقق مكاسب وفيرة(١) .

والجدول التالى يوضح الارتفاع الضخم فى المحصول والأسعار على السواء (٢) .

السنة	عدد القناطير المصدرة	سعر القنطار بالريال
١٨٦٠	٤١٥ر٥٠١ر٠	١٢
١٨٦٣	٨٨٨ر١٨١ر١	٢٣
١٨٦٤	٧٩١ر٧١٨ر١	٣٦ ١/٤
١٨٦٥	١٦٩ر٠٠١ر٢	٤٥

وإذا كان القطن محصولا للتصدير فإن هذا يعنى أن كميات هائلة من الثروة كانت تتدفق إلى البلاد .. بلغت فى عام ١٨٦٣ مثلا ٣٠٠ مليون فرنك (٣) .

الثروة تجرى إذن فى أيدى المزارعين وهى نقود سائلة صالحة للتراكم والاستثمار .

والنتيجة أعداد كبيرة من الوابورات للرى . . استصلاح أرض بور (الرقعة الزراعية اتسعت من ٠٠٠ر٣٥٠ فدان سنة ١٨١٣ إلى ٠٠٠ر٧٤٣ر٤ فدان سنة ١٨٧٧) (٤) .

---

(١) دافيد لاندز بنوك وشاوات ترجمة د . عبد العظيم أنيس. طبعة دار المعارف ص ١٧٥.

(٢) د . راشد البراوى، محمد حمزه عليش ، التطور الاقتصادى فى العصر الحديث — الطبعة الثالثة (١٩٤٨) . ص ٦٩ .

(٣) بنوك وباشوات . المرجع السابق ص ٤٥ .

(٤) مقال د . محمد أنيس . السابق الإشارة إليه .

ثم إن القطن قد أحدث تطورات كبيرة فى أنظمة الرى والزراعة فهو محصول صيفى وهو يتطلب رياً منظماً خلال فترة الفيضان .. ومن ثم وجب التحكم فى هذه المياه والتخلص من أسلوب رى الحياض وإقامة جسور لحماية الأرض من مياه الفيضان .. ومصارف .. و .. و..الخ . الأمر الذى قفز بالتكنيك الزراعى قفزات واسعة إلى الأمام . لكن الصورة الوردية لم تستمر طويلا .

فالحرب الأهلية الأمريكية أخذت تقترب من نهايتها وانحدرت الأسعار سريعاً حتى بلغت فى مارس ١٨٦٥ ، ١٥ بنساً للرطل .. بعد أن كانت فى يوليو ١٨٦٤ ٣٢ بنساً لكن القدر كان يخبىء ضربات أشد .

فإسماعيل الذى انتابته حمى تملك الأرض يستولى فى جنون ويصادر فى جنون مساحات واسعة من الأراضى الزراعية .

« وكلما ارتفعت أسعار القطن أصبحت شهيته للأرض المزروعة غير محدودة ، وكل إنسان — بما فى ذلك أقاربه وأصدقاؤه — لم يكن بمأمن من عينه الجشعة . وإذا قدم والى مصر مايعتقد أنه سعر مناسب لقطعة من الأرض يريد شراءها سارع المالك إلى قبول هذا الشرف ، مهما كان رأيه الحقيقى فى السعر المقدم — إذ لو رفض العرض لكان معنى هذا قطع المياه عنه وهرب فلاحيه فى الليل .. وبهذه الوسائل ضاعف اسماعيل بسرعة ممتلكاته الواسعة ثم أصبحت ثلاثة أمثال — وفى النهاية أربعة أمثال — ما كان يملك(١) وفى سنة ١٨٨٠ بلغت مساحة الأراضى المملوكة للدائرة السنية ٥٠٣ر٦٩٩ فداناً (٢) .

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد .

فاسماعيل يبعثر الأموال بجنون محموم .. وعصابات اللصوص الأجانب من كل جنس تلتف حوله لتمتص من خلاله دماء الشعب المصرى كله . .

---

(١) بنوك وباشاوات . المرجع السابق ١٧٦ .

(٢) تاريخ الملكية الزراعة فى مصر . المرجع السابق ص ٤١ .

والقروض وفوائد القروض وعمولات القروض وأقساطها تتراكم .

ولابد من مخرج .

ولا طريق سوى مزيد من الضرائب .

وإذا كانت مساحات كبيرة جداً من الأرض المملوكة للأسرة المالكة والباشوات الأتراك معفاة من الضرائب .

فإن عبء الضرائب كان يقع كاملا على كاهل المصريين .

وظل اسماعيل يبتكر وسائل جديدة لابتزاز الأموال .

فهو يقوم فى سنة ١٨٦٦ بزيارة إلى طنطا بدعوة من أعيان البلاد وهناك يحدثهم عن مشروع قرض يبلغ ٢٠ قرشاً على الفدان فى مقابل سندات عالية تدفع على أربع سنوات . . وتبلغ حصيلة هذا القرض الإجبارى مليون جنية . (١)

ويعلق قنصل بريطانيا فى تقرير إلى حكومته على هذه الصفقة قائلا .

« لقد لجأ الخديوى إلى تحصيل سلفة إجبارية على الأراضى الزراعية بلغت مليوناً من الجنيهات » .

غير أن إسراف اسماعيل لم يكن له حدود .

وارتفعت أرقام القروض الداخلية حتى بلغت سنة ١٨٧٤ مبلغ ٥ر١٣ مليون : (٢)

وبدأت الضرائب تتوالى على كاهل الزراع والفلاحين .

إذا طالبوا برفع السخرة فرضت الحكومة فى مقابله ضريبة على المواشى بمقدار ٢٠ قرشاً على الرأس فى السنة باستثناء الجمال إذ فرض عليها ٣٠ قرشاً للرأس والحمير ١٠ قروش .

---

(١) فجر الحياة النيابية المرجع السابق ص ١٦

(٢) مقال مصر من الاقطاع إلى الرأسمالية المرجع السابق .

وبدلا من القرعة العسكرية فرضت ضريبة جديدة هى البدل العسكرى (١).

وكانت قصة لائحة المقابلة هى أكثر عمليات النصب الخديوى سفوراً ففى ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧١ صدرت لائحة المقابلة الذى يدفع المالك بموجبها ستة أمثال الضريبة السنوية على أن يعفى بعد ذلك وإلى الأبد من نصف الضريبة المربوطة . . وكان دفع المقابلة اختيارياً ظاهره . . لكن اسماعيل أجبر الجميع على دفع المقابلة . . لكن المهزلة لم تقف عند حد دفع ضرائب ست سنوات مرة واحدة فلم تأت سنة ١٨٨٠ حتى أعلن اسماعيل بمنتهى البساطة إلغاء المقابلة .

وطلب إلى الفلاحين أن يدفعوا الضريبة كاملة من جديد .

وثار الأعيان ضد هذا النصب الخديوى وكتب السيد حسن موسى العقاد مظلمة إلى لجنة التصفية نشرها فى جريدة الريفورم واصفاً هذا الاجراء بالاستبداد فقانون المقابلة «عقد لا يجوز للحكومة الغاءه من جانبها وحدها وأن الأهالى قد احتملوا شدائد كثيرة فى أداء القابلة وباعوا فى هذا السبيل مصوغاتهم وأملاكها واستدانوا الديون الفادحه وكان لزاما على الحكومة إن ترد ما أخذته قبل أن تلغى المقابلة » (٢) .

واعتبرت العريضة اهانة للخديوى . . واخوكم العقاد ونفى إلى فازوغلى بالسودان . .

والحقيقة أن مطالبات اسماعيل لم يكن لها نهاية .

يقول دافيد لاندز فى بنوك وباشوات .

« كان هناك اقتراح بزيادة الضرائب ، وكلما زاد حرج الحاكم والخزانة زادت الضرائب المقترحة . . وفى فبراير اقترح الخديوى زيادة ضريبة الأرض بمقدار ٦ قروش للفدان . . وفى يونيو عندما فشل قرض الدائرة

---

(١) تاريخ الحياة النيابية المرجع السابق ص ٤٠ .

(٢) الرافعى- الثورة العرابية المرجع السابق ص ٧٤ .

السنية كانت مزيادة المقترحة ١٠ قروش وفى يوليو عندما كان المولون الأجانب يدقون أبواب الخزانة بعنف . . كانت الزيادة المقترحة ٢٠ قرشاً للفدان » .

ويمضى لاندز قائلا :

« لقد كان هذا الإجراء الأخير إجراء مبالغاً فيه حتى من وجهة نظر اسماعيل وإذا خاف اسماعيل أن يفرض إرادته بالقوة قرر أن يقيم فى مصر هيئة نيابية تصوت « باسم الشعب » على الإجراءات التى تقترحها الحكومة » .

لقد أراد اسماعيل أن يكسب ود كبار الأعيان . . وأن يمنحهم الحبل الذى يشنقون به أنفسهم عن طيب خاطر .

ويكتب اسماعيل الى نوبار قائلا « إن المصريين يحكمون الآن بشىء من الضغط والتباعد بينهم وبين الحكومة ظاهر الأثر » .

ويكتب نوبار بدوره إلى سكرتير الخديوى قائلا « أنه يجب أن تعرض على الأعيان دواسة القواعد التى رأت الحكومة إقامة ضرائب هذا العام على أساسها (١)

وكان إسماعيل بحاجة إلى المجلس النيابى ليقره على كل مايطلب من زيادة فى الضرائب . . وكان لايتصور بطبيعة الحال أن أحدا فى المجلس سجرؤ على أن يقول له لا ؛ ثم انه كان يريد أن يستخدم المجلس واجهة يدعم بهم مركزه تجاه المولين الأجانب مرحياً اليهم أن مركزه قوى . وأن الأهالى يؤيدونه . وأن له مصادر لا تنضب من الضرائب .. كل هذا بهدف الحصول على مزيد من القروض ..

وتمت الانتخابات .. التى نجح فيها أعضاء كلهم بلا استثناء من الأعيان وتجمع النواب فى القاهرة « يزهون فى أفخم ملابسهم حائرين وإن كانوا فخورين وممتلئين بالنوايا الطيبة وفى أول اجتماع لمجلسهم احتلوا الصفوف فى زهو واخذوا مقاعدهم إلى اليسار واليمين والوسط وفقا لصداقاتهم وارتباطهم وأبدى أحد

(١) فجر الحياه النيابية ص ١٨

الرسميين ذوى الخبرة فى الشئون البرلمانية دهشته قائلا: أوه ... لا ... لا إن اليسار دائما للمتمردين أما الوسط فهو مكان المحترمين و المواطنين ذوى التفكير السليم.

وعندئذ حدث اندفاع عنيف إلى مقاعد الوسط وتضارب النواب فى محاولاتهم النشيطة للتعبير عن ولائهم واخلاصهم وتمسك شخص واحد سيئ الحظ بمقعده فى اليسار وغنى عن البيان أنه هزم هزيمة ساحقة فى التصويت .. ومرت الضريبة الجديدة » (١)

لكنها كانت بهجة الشئ الجديد

فما لبثت مطالبات اسماعيل أن زادت عن الحد المعقول .

ومالبثت مقاومة النواب الأعيان أن اشتدت.

فقف يوسف العقبي وهو تاجر ينوب عن القاهرة ليطالب بالغاء ضريبة الفردة فيراوغ الوزير .. لكن العقبي يخاطبه بلهجة الجد قائلا « لازلنا نكرر طلب رفع الفردة من الآن »

وعندما حدث تلاعب فى تقدير درجات الأطيان العشورية تقدم النائب حسن عبد الرازق يلوم الحكومة « لعدم الدقة فى هذا القرار » .

وكان هؤلاء الأعيان هم الذين وقفوا بعد ذلك فى وجه توفيق يعلنون أنهم نواب الأمة المصرية وكلاؤها المدافعون عن حقوقها المطالبون لمصلحتها (٢)

وهم الذين وقفوا بعد ذلك ضد أية زياده فى الضرائب .

وهم الذى صمموا على مناقشة الميزانية بنداً بنداً .

ويكتب مراسل التيمس : ينبغى ألا ينظر إلى البرلمان بعينى الازدراء فلقد أظهر النواب دلائل الحياة العديده كما أظهروا جنوحا الى استقلال الرأى

---

(١) لاندز بنوك وباشوات ص ٢٤٢ .

(٢) من خطاب لجنه الرد على خطبة الافتتاح فى المجلس ١٨٧٩ راجع فجر الحياة النيابية ص ١٠٣

وليس هذا بالأمر العديم الأهمية (٢)

ولفترة طويلة يصبح البرلمان مركزاً لصراع عنيف يمثل إرادة الأمة الحقيقية. ويصبح أحد المراكز التي استندت إليها الحركة الشعبية في إعدادها للثورة .. ويصبح مظهراً للتحالف بين قوى الشعب كله .

والآن يمكننا أن نفسح الطريق لموضوع آخر .. لكننا فقط نريد أن نستخلص النتائج بعد كل هذه المقدمات فالتاريخ – كما هو واضح من العرض السابق – قد وصل بالأعيان إلى مرحلة التكامل الطبقي وها نحن نجد أمامنا

طبقة تنمو وبسرعة كبيرة ، ويتجمع من مختلف الفئات والمواقع الاجتماعية افراد يمتلكون مساحات كبيرة من الأرض .. موظفون كبار نالوا هبات من الوالى كبار المشايخ الذين أثروا من إكراميات الباشا أو من الالتزامات التي

منحت لهم . وتجار أغنياء يعجزون أو يرفضون أو لا يعرفون كيف يحولون تراكمات أرباحهم في استثمارت رأسمالية فيتجهون نحو تملك الأراضي الزراعية تاركين ميدان الاستثمار الرأسمالي كلية للاجانب .. لكن الكيان الأساسي لهذه الطبقة كان من كبار العمد ومشايخ البلاد والأسر الريفية الغنية الذين استفادوا من موقعهم في السلم الاداري – رغم تفاهته بالنسبة للوظائف الكبيرة – فيزيدون بشتى الطرق من أملاكهم على حساب الفلاحين الفقراء .

من كل هذه الفئات تتكون وبسرعة طبقه ذات مزاج اجتماعي واحد.. ومصالح متميزة ومستقرة تحتقر الفلاحين وتستغلهم بل وتعيش وتنمو على هذا الاستغلال .. لكنها وفي نفس الوقت تستشعر الخطر الداهم من جانب الخديوي الحاكم المتسلط الذي يعطي لنفسه الحق في أن يلتهم كل شيء .. والذي يمكنه في لحظة واحدة أن يطيح بأي إنسان .

---

(١) راجع الترجمة العربية لكتاب Runaf Egypt تأليف روزنشتين والتي تحمل اسم تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده – ترجمة على شكرى . الطبعة الاولى سنة ١٩٢٧ ص ١٥٨ .

والضرائب تتوالى فى الارتفاع .

وأسعار القطن تنهار إلى الحضيض .

والأعيان الذين اعتادوا الثراء والأبهة والفخامة يستديرونون من المرابين الأجانب مؤملين فى أسعار جيدة للقطن الجديد . . وتخيب الآمال . . و تزداد الرهونات وتنهار عديد من الأسر العريقة . . وهكذا يبرز عدو جديد لهذه الطبقة .التجار والمرابون الأجانب . . هناك أيضاً التسلط الأجنبى على الميزانية والذى يسعى باستمرار لزيادة الضرائب ، وبخصص كل ايرادات الدولة لتسديد كوبونات الديون .

ثم هى تصطدم بعد ذلك بالباشوات والأتراك والشراكسة الذين يمتلكون شفالك معفاة من الضرائب . . و الذين يتعالون عليهم ويرفضون مصاهرتهم ويصفونهم دائماً ومهما كان ثراؤهم بأنهم « فلاحون » والذين يحتكرون لأنفسهم ولاولادهم أرقى المناصب فى السلم الإدارى.

. . ومن خلال المعركة ذات الاطراف المتشعبة يصقل الوعى الطبقى للأعيان ويخوضون غمار صراعات متشابكة وتناقضات عديدة .

وفى اطار هذه الصراعات بدأت مقاومة النواب تنضج فى اتجاه المطالبة فالدستور . .فالدستور والحكومة المسئولة أمام مجلس الشورى هما السلاحان اللذان يمكن أن تضمن طبقة كبار الملاك أن تكبح بهما جماح الخديوى والتسلط الأجنبى و صندوق الدين .

وتتضمن بهما أن تتحكم هى وليس مستغلوها فى تحديد الضرائب كماً ونوعاً

وأن تتحكم هى وليس الشراكسة ولا الأجانب فى شئون الدولة . . والحكم . . والوظائف .

وأن يضمن صيانة أملاكها . .وأموالها من النهب الخديوى .

باختصار كان الدستور مظلة واقية تحمى الطبقة من أعدائها . . وتصلح فى نفس الوقت وهذا هو المهم ستاراً لاستغلالها ونهبها للفلاحين الفقراء .

وترتفع المطالبة بالدستور شعاراً للطبقة . . وتلتقى فى ذلك مع بعض الباشوات المستنيرين من الأتراك الذين كرهوا ضغط الخديوى وانفراده بالسلطة فنادوا بالدستور طريقاً لاستمتاعهم بمزيد من السلطة والجاه والوظائف .

وتلتقى أخيراً بالتجار الذين يطالبون بالدستور ضماناً ضد تزيد الضرائب بلا حدود وسبيلا لمركز أفضل تجاه التجار والسماسرة والمرابين الأجانب وطريقاً يوصل أبناءهم الذين يتخرجون بكثرة فى المدرس التجهزية إلى المناصب الحكومية .

وتتناسى هذه الجماعات خلافاتها . . وتوحد صفوفها وترفع صوتها مطالبة بالدستور .

باختصار كانت الطبقة تنضج وتستقر وتشعر بكيانها الاجتماعى .

لكنها لم تكن وحدها فى الميدان . . فثمة قوى وطبقات كانت هى الأخرى تنضج وتصقل فى غمار الصراع .

٢

عندما رسا نابليون عند مصب النيل لم يجد غير قشور مدنية .. لم يجد غير شعب مقيد وبقايا ماض طويل عفا عليه النسيان .. إلى حد أن البعض يزعمون أن نابليون عندما أنزل عربته إلى الشاطئ كان يدخل العجلة من جديد إلى مصر .

دافيد لاندز

بنوك وباشاوات

الفلاح . . جيش الثورة

« لقد ظلت مصر كما هى منذ أن رآها هيرودوت بلد الغرائب والعجائب والمتناقضات ، لقد تتالى على أرضها الغزاة أبر الغزاة ..وبالتالى الحكام فى إثر الحكام . . وعاشت قروناً طويلة من الفوضى .. وتتابعت على أرضها الوثنية . . ثم المسيحية .. ثم الإسلام لكنها بالرغم من كل هذه التغيرات التى لاحصر لها ظلت كما هى بلداً سمته الأساسية إنه لايتغير .. »

هكذا كتب ملنر فى مقدمة كتابه « انجلترا فى مصر »(١) ويمضى ملنر قائلا : « مامن بلد فى العالم نجد فيه فلاحاً كالفلاح المصرى يعيش حياة مليئة بالأشياء الشاذة والعجيبة .. »

أما إدوارد ديسى وهو واحد من غلاة المستعمرين فقد كتب يقول :

« وفى أى اتفاق بيننا وبين الخديوى . . أو أى اتفاق بين الخديوى وبين أية قوة أخرى فإن المصريين أنفسهم لايمكن أن يكون لهم أى صوت أو أى دور فى هذا الموضوع .. فإذا كان من البلاهة أن يتطلب مشترى قطيع الأغنام من البائع أن يبرز له موافقة مكتوبة من القطيع على عملية البيع . . فإننا سوف نتهم بالبلاهة إذا ما طلبنا موافقة الفلاحين المصريين على انتقال بلدهم من مالك لآخر (١) .

ويمضى ديسى فى كتابه السابق قائلا :

« لنتقدم ونحتل مصر . . مامن قوة سوف تقف امامنا . . لا الخديوى

---

(١) الفايكونت ملنر — إنجلترا فى مصر — الطبعة الثالثة عشرة سنة١٩٠٧طبعة ادوارد أرنولد لندن ص ٢ .

(٢) ص ٢ المرجع السابق .

(٣) ادوارد ديسى إنجلترا و مصر . طبعة شامبان ، هال — لندن . ١٨٨١ ص ٥٠ .

ولا الأمراء ولا أية مقاومة شعبية .. أما الفلاحون وهم ٩٥ ٪ من السكان فسوف يستقبلوننا بترحاب استقبالهم للمنقذ المخلص (١) .

« ولقد ظل المصريون لآماد طويلة خاضعين للعبودية .. ولو أنهم كتبوا تاريخهم بأيديهم لما كتبوا أكثر من أسماء سلسلةمن السادة المتسلطين . والفلاحين ليسوا سوى معاناة مستمرة وعمل مرهق وعقول ساذجة دمرت نفوسهم العبودية التي استمرت عصوراً طويلة . . تلك العبودية التي يظنون أنها الأسلوب الطبيعي فى هذا الكون . . فإن الناموس الطبيعي ألا ينالوا شيئاً من ثمار عملهم .. وأن اللطمات هي الأجر الطبيعي الذى يناله الفلاح مقابل يوم عمل شاق . .(٢)

وثمة كاتب أجنبي هو كلوت بك يقدم هو الآخر رأيه فى الفلاح المصرى .. فيقول :

« إن ماذكرناه عن اقتصار الأمة المصرية على السكون والهدوء وحبها العيش فى ظلال الأمن والسلام يقعدان بها عن رفع لواء العصيان والخروج على أولياء الأمور . نعم إن الفلاحين ينزعون أحياناً إلى الشغب واحتدام نار الفتنة لكنهم لايلبثون أن يفيئوا إلى الطاعة ويخلدوا إلى السكينة قبل أن تتحول تلك النزعة فى نفوسهم من التردد إلى اليقين .. وهذا فضلا عن أنه لايدور بخلد أى مصرى ولا يخالط مزاجه شيء من البواعث التي توطن العزم على الثورة كالتروى فى عواقبها والاحتياط لها بالوسائل العملية كالمثابرة والهمة واليقظة .. إذ كثيراً مايحدث أن يتجمهر الفلاحون وتحتشد حشودهم وتثير التراب فى الهواء وتصبح قائلة .. يلا .. فإذا كان وقت العمل لايلبثون أن يسكن الروع قلوبهم وأن يخشوا عاقبة طيشهم وغرورهم .. وربما كان الباعث على ذلك يقينهم أنهم عزل من السلاح وأنه لاخطة للعمل مرسومة

---

(١) المرجع السابق ص ٨٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٣ .

عندهم ولا رئيس تشرف على تنفيذها ..»(١)

وهكذا نرى أنهم لم يظلموا عرابى وحده لكنهم ظلموا شعباً بأسره .

إنهم ينسون المقاومة الباسلة التى خلصها الشعب المصرى ضد الحملة الفرنسية ثورة القاهرة الأولى وثورتها الثانية .

ينسون البطولات الشعبية .

الشيخ الدردبرى الذى وقف يخطب فى الناس الذين نهب بيوتهم مملوك إسمه حسين بك اليهودى قائلا :

« أنا معكم فى غد تجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما نهبون بيوتنا ونموت شداء أو ينصرنا الله ..

والحاج مصطفى البشتيلى الذى ظل يقاوم الفرنسيين حتى أرسلوا إليه يدعونه إلى الصلح فجمع رجاله قائلا « أتانا جواب من الكلب فأبيناه » .

إنها روح الشعب الذى يحكى عنها كلوت بك نفسه فى شىء من الدهشة قائلا .

« وفى سنة ١٨٢٤ احتدمت فى الوجه القبلى نار الثورة فالتهمت ما بين إسنا وأسوان لاشتغال الحكومة بتكوين الجيش على النسق الجديد وكون زعيمها ومركى ضرامها شيخاً ممن يدعون أنهم مهبط الوحى الإلهى وكانت فى تلك الأرجاء شرذمة من جنود الاورطنالأولى فتفرقوا أيدى سبأ(٢) .

ومن هذا التناقض بين الصورتين تبينت الصورة الحقيقيةللفلاح المصرى. صور هادىء يتحمل فى جلد سنوات وسنوات حتى ليظنه الإنسان متخاذلا ..

ثم فجأة ينقلب مقاتلا شجاعاً مدافعاً فى استبسال عجيب ..

---

(١) ا.ب كلوت بك — لمحة عامة إلى مصر — تعريب محمد مسعود ج ٢ ص ١٥٢

(٢) كلوت بك المرجع السابق ص ١٥٤ .

هذا هو الفلاح المصرى ..

والحقيقة أن العبء الأكبر لطغيان الغزاة والمستبدين الذين توالوا على حكم مصر كان يقع على عاتق هذا الفلاح .. الهادى الوديع .. المنتظر فى صبر .. المتعلق بأرضه فى حب . . القائم على زراعتها فى أدب وإصرار عجيبين ..

والكتابات التى تصف حياة الفلاح المصرى والشقاء الذى ظل يعانيه قروناً طويلة كثيرة جداً ولست أعتقد أنه من الضرورى استعادتها فى هذا الفصل .

وتمضى الحياة الرتيبة فى الريف لايقطعها سوى تزايد فى الطغيان يدفع الفلاحين الذى هم أشد الناس كراهة للاغتراب وأشدهم تعلقا بأرضهم . يدفعهم إلى الفرار . .

و يظل « الفرار » بالنسبة للفلاح المصرى سلاحه الفعال فى محاربة الطغيان .

وعمليات « الفرار » هذه التى تكررت على مدى قرون طويلة هى أيضاً تعبير عن طبيعية هذا الشعب . . ولست أعتقد أن الفرار سلبية محضة لكنه موقف عملى إنه ، رفض لتقديم العرق والجهد للسيد الحاكم ، بل هو نوع من الإضراب عن العمل .

فالفرار فى مصر يعنى ضربة قوية للسلطة الحاكمة فهو يحرمها من اليد العاملة فى الزراعة . . ومن القوة الخارقة التى تحفر الترع وتشق المصارف ومن الجنود وباختصار يحرمها من كل أمل فى الثراء والاستغلال .

و « الفار » يعرف أن عقوبته قاسية وأن أرضه وزراعته سيستولى عليها شيخ البلد أو العمدة . . لكنه مع ذلك يصحو ذات يوم . . وبعد سنوات طويلة من الذل والصبر ليعلن أنه قد آن له ، يرفض هذا الظلم . . متحملا كل تبعات الفرار ولعل أقساها هو مجرد الاغتراب عن قريته وأهله .وفقدان أرضه . .

أنه مزيج من العصيان وعدم القدرة على مواجهة الطغاة في جبهة مكشوفة . . ولكنه ليس سلبية محضة ،

وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن بعض حالات الفرار أيام عباس وسعيد واسماعيل ورأينا كيف هجر فلاحوا الشرقية والدقهلية وحدهم فى عام واحد مساحة تبلغ ٤٦,٨٦٦ فدان . ،

فأذا كنا نعلم أن « الفارين » جميعا فلاحون فقراء . بل وفقراء جداً وأن مساحة ملكية كل منهم ضئيلة للغاية لأمكننا أن نتخيل مجموع هؤلاء الذين يمتلكون ٤٦,٨٦٦ فدانا . ،

والفرار ليس ظاهرة حديثة مرتبة بالأسرة العلوية وفداحة الضرائب فيها . . لكنه سلاح مصرى قديم . .

ظل الفلاحون يستخدمونه أجيالا بعد أجيال حتى أن الحكام فى نهاية الدولة الأيوبية قد قسموه أبناء القرى الى فريق مستقر وملازم للقرمة وسموه « القرارين » وفريق هارب وهائم على وجهه بين القرى وسمى « الفارين »

ولعل كلمة « القرارى التى تستخدم الآن للتدليل على الصبر والمثابرة فى العمل هى الصفة التى يستحقها هؤلاء الذين صبروا رغم كل شىء وثابروا على القرار فى أرضهم (١)

على أن ترك القرية لم يكن الوسيلة الوحيدة للفرار فثمة وسائل أخرى لجأ إليها الفلاح للهرب من طغيان الحكام .

. فإذا كان الذوات والأعيان لهم امتيازات كثيرة . . ويستطعون حماية فلاحيهم من السخرة ومن الجندية فلم لا يلجأ الفلاح إلى هؤلاء الكبار طالباً حمايتهم .

ولعله كان يقلد فى موقفه هذا ماشهدته مصر فى أعقاب الفتح الإسلامى مباشرة من ظاهرة كانت تسمى « بالإلجاء » حيث «يلتجئ» الذى إلى عشيرة أو أسرة مسلمة مقدما لها أراضيه وأملاكه طالبا حمايتها وامتيازاتها .

---

(١) عباس العقاد – محمد عبده – سلسلة أعلام العرب ص ٣٦ .

وهكذا « لجأ » الفلاح إلى كبار الملاك والأعيان متنازلا لهم عن ملكيته فى مقابل خلاصه من السخرة والضرائب الفادحة والجندية . .

والامتيازات التى يمكن أن يكفلها هؤلاء « الذوات » لفقراء الفلاحين مغرية .

« فقد كان كبار الملاك يفلحون دائما فى تهريب مستأجريهم وفلاحيهم من السخرة بينما كان صغار المستغلين يجبرون على أن يتركوا أرضهم مدداً طويلة » . (١)

ويورد باير أيضاً فقرة من تقرير كتبه أحد نواب القنصل الإنجليزى تقول : « أن أراضى الدائرة السنية وأبعاديات كبار الملاك (الذوات) لا ترسل فلاحيها إلى السخرة ولا تدفع ضريبة المردة عنهم » (٢)

وكان الملاك الأجانب يستمتعون بالحماية الأجنبية . . وفى كنف الحماية الأجنبية لجأ كثير من الفلاحين بأراضيهم « للخواجة » فى مقابل حمايته لهم . ، لدرجة أن « وزارة الخارجية المصرية » قد طلبت مرارا إلى القناصل أن يطلبوا إلى رعاياهم عدم فرض حمايتهم على الفلاحين » (١)

وهكذا يلاحظ حقاقيان فى يومياته . « ان الامتيازات الممنوحة للذوات قد جذبت جموعا غفيرا من الفلاحين المجاورين لأراضى السادة هربا من السخرة » (٢)

ويروى أحد الفاصل أن الفلاحين قالوا له خلال زيارته للصعيد « أن مالك الأرض يحمينا من السخرة لأننا إذا أخذنا إلى هذا العمل فإننا لن نستطيع دفع الإيجار مطلقا » (٣) .

وتصبح قدرة « الذوات » على إفلات فلاحيهم من السخرة حقيقة واقعة فيصدر فى فبراير ١٨٧٩ قانون يعطى لمزارعى الأبعاديات الحق فى دفع بدل نقدى عن السخرة .

---

(١) تاريخ الملكية الزراعية فى مصر الحديثة — المرجع السابق ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٣ .

وفى ٢٥ يناير ١٨٨١ يصدر قانون آخر يعفى سكان المدن والحراس والقسس وفئات أخرى من السخرة.

ويبقى سيف السخرة مسلطاً على رقبة الفلاح الفقير وحده .

ولنترك ادوارد ديسى يروى ما شاهده بنفسه . « أتذكر أننى مررت بجماعة من المسخرين يعملون فى رصف طريق لا يبعد عن القاهرة بأكثر من ½ كيلو . رأيت رجالا ونساء وأطفالا يعملون تحت إجبار السوط وعلى كل عشرة شغاله كان هناك خولى يمسك عصا يظل يضربهم بها باستمرار وبدون انقطاع بالرغم من أنهم منهمكون فى عملهم ، ورئيس الأنفار يحمل سوطاً يلهب به ظهر « الخولى » والمهندس يحمل كرباجا ليعاقب به رؤساء الأنفار .. كان — المنظر نموذجا مصغراً للحياة الاجتماعية فى مصر كلها وأبشع ما فى هذا النموذج أن الجميع كانوا ينظرون إليه على أنه مسألة طبيعية »(١)

بهذا الأسلوب حفر الفلاح عشرات الآلاف من الأميال من الترع والمصارف وأقام الخزانات وآلاف الكيلو مترات من السكك الحديدية وحفر قناة السويس .

ويكفى أن تعرف أنه فى ١٢ عاماً فقط ١٨٦٣ — ١٨٧٥ حفر الفلاح المصرى فى ظل أبشع أنواع السخرة ١١٢ ترعة طولها ٨٤٠٠ ميل ومد ٩١٠ من السكك الحديدية و ٥٠٠٠ ميل من الأسلاك التلغرافية وبنى ٤٣٠ من الجسور والكبارى منها كوبرى قصر النيل وبنى ٦٤ طاحونة لصنع السكر .

وكأن هـــذا كله لم يكف . . ففى هذه السنوات نفسها حفر

---

(١) انجلترا ومصر — المرجع السابق ص ٦٤ .

المصريون قناة السويس(١) وقناة السويس عبء كبير جدا.. يقول أمين سامى باشا فى كتابه « تقويم النيل » فى ٢١ رمضان ١٢٧٥ بدىء فى حفر قناة السويس وأعدت الحكومة لهذا العمل ٢٧٫٠٠٠ عامل بدون أجر (٢) بل أن عدد المسخرين فى حفر قناة السويس قد وصل إلى ٦٫٠٠٠ شخص .

ولم تكن السخرة وحدها

فهناك أيضاً العسكريه .

والحقيقة أن الفلاح ظل بعيداً عن هذا الميدان لأمد طويل لدرجة أن الأتراك والشراكسة وغيرهم كانوا يستخدمون « العسكرية صفة مميز لهم . فمن لم يكن عسكرياً فهو فلاح .

لكنه من الخطأ أيضاً أن نتصور أن محمداً على كان أول من جند المصريين فمنذ فترة تسبق محمد على . . وخاصة عندما بدأت الإمبرطورية العثمانية فى الضعف وبدأ الجنود العثمانيون المقيمون فى القاهرة يشيخون ولم تكن الدولة بقادرة على استبدالهم بجنود آخرين أكثر شابا . .

بدأ العبء يقع على عاتق الفلاح المصرى . .

وهناك عبارة فى تاريخ الجبرتى تلفت الأنظار إلى هذه الحقيقة فهو يسرد أحداث عام ١٧٣٦ قائلا :

« ورد أغا وعلى يده مرسوم يطلب سفر ثلاثة آلاف عسكرى إلى محافظة بغداد وأن يكون العسكر من أصحاب العثمانية ،

---

(١) روزنشتين . . المرجع السابق ص ٨٦ .

(٢) محمد صبيح — مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية. جـ ٢ ص ١٥٣

ولا يرسلوا عسكراً من فلاحى القليوبية والجيزة والبحيرة وشرف أطفيح والمنصورة »(١) .

واضح إذن أن العثمانية كانوا يجندون المصريين منذ أمد المصريين طويل سابق على عهد محمد على لكن محمد على هو الذى جعل الجيش مصرياً خالصاً .. وألقى العبء كله على المصريين ..

ويمضى الفلاح المصرى ليحارب فى الموره وفى نفارين وفى روسيا وفى جده وفى أقاصى السودان ومصوع بل وفى المكسيك أيضاً . .

وبطبيعة الحال كان كبار الملاك يحمون فلاحيهم ومزارعيهم وأتباعهم من القرعة .. ويقع العبء كله على الفلاح الفقير .

مرة ثالثة لم يكن هذا هو المظهر الوحيد للظلم

فالأرض التى انتزعت من المماليك تسربت إلى كبار الملاك .

وحتى الأراضى التى خصصها محمد على للفلاحين . . ظلت تتسرب وباستمرار من أيديهم لتتجمع فى أيدى كبار الملاك ومشايخ البلاد والعمد ..

فلو نظرنا إلى جدول توزيع الملكية فى نهايات القرن ١٩ لوجدنا أن عدد الملاك الذين يملكون أقل من خمسة أفدنة يبلغ ٧٦١,٣٠٠ مالك يملكون ١,١١٣,٠٠٠ فدان .

بينما ١١,٩٠٠ شخص يملكون أكثر من خمسين فداناً بمجموع ملكياتهم ٢,٢٤٣,٥٠٠ فدان ..

أى أن ٨٣,٣٪ من الملاك يملكون ٢١,٧٪ من الأرض بينما ١,٣٪ من الملاك يملك ٤٤٪ من الأرض(٢) .

---

(١) راجع فى هذا الصدد مقال د. وسليم خالد — من يوميات الجبرتى — مجلة الكاتب عدد أغسطس ١٩٦٥ ص ٤٤ .

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع الأرض والفلاح . ابراهيم عامر المرجع السابق ص ٨٩ .

ومع ارتفاع الضرائب .. وإنهاك الرجال فى السخرة .. وانخفاض أسعار القطن .. وارتفاع أسعار المأكولات زادت ديون الفلاح .. ولجأ إلى المرابين الأجانب الذين انتشروا كالأخطبوط فى الريف ..

« ويؤكد لورد دوفرين أن الأموال المدونة فى قوائم الرهن زادت فيما بين سنتى ١٨٧٦ — ١٨٨٢ من $\frac{1}{2}$ مليون جنيه إلى ٧ ملايين جنيه منها ٥ ملايين خاصة بالفلاحين .. هذا عدا ما عليهم من الديون للمرابين فى الأرياف والتى تبلغ حو الى أربعة ملايين جنيه أخرى . ويمضى دوفرين مؤكدا أن هذه الديون قد تراكمت حديثاً »(١)

وعندما هبطت أسعار القطن كان المرا ون الأجانب يقرضون بضمان الأرض — وليس بضمان المحصول .. لكن الأزمة التى تلت كساد القطن كانت طاحنة إلى درجة أن « قيمة الأرض قد هبطت كذلك ولم يكن هنالك من يريد أخذ الأرض »(٢) .

ومعنى هذا باختصــار أن الأرض انتقلت إلى المرابين الأجانب وبأبخس الأسعار .

ووصل الأمر إلى الحد الذى دفع مسيو بيو مدير مصلحة الطب البيطرى إلى أن يؤكد فى عام ١٨٧٩ « أن معظم الفلاحين أصبحوا لا يملكون الأرض التى يزرعونها وأن تسعة أعشار الأراضى تابعة لطبقات أخرى »(٣)

وهناك أيضا الضرائب ..

صحيح أن عبئها قد زاد على جميع المزارعين المصريين

وأنه فى ١٨ يناير عام ١٨٨٠ صدر مرسوم يقول :

---

(١) روزنشتين . المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٢) ندز . المرجع السابق ص ٢٢٤ .

(٣) روزنشتين . المرجع السابق ص ٢٠٨

« نأمر أولا أن يزاد على رسوم الأراضى العشورية (وهى أراضى كبار الملاك - المؤلف) مبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيه مصرى اعتباراً من يناير عام ١٨٨٠ وهذه الزيادة توزع على جميع الأراضى العشورية معدلة على مقدار مايلحق كل أرض من رسومها الميالية »(١)

إلا أن هذه الزيادة كانت ضئيلة جدا بالنسبة للزيادة التى لحقت الأراضى الخراجية (أراضى صغار الزراع) والتى وصلت إلى نصف المحصول كله .

والحقيقة أن معظم أراضى كبار الملاك كانت عشورية .. وأن التفاوت كان كبيرا جدا بين الضرائب التى يدفعونها و بين ضرائب الأراضى الخراجية.

ففى عام ١٨٥٦ كانت الضريبة العشورية على الفدان فى الوجه البحرى تتراوح بين ١٨ - ٣٥ قرشا وفى الوجه القبلى ٣١ - ١٤ قرشا بينما كانت الخراجية ٩٠-١٠٠ قرش و فى عام ١٨٧٧ كان مجموع الضرائب المحصلة من الأراضى الخراجية ٣,١٤٣,٠٠٠ جنيه أى تسعة أضعاف الـ ٣٣٣,٠٠٠ ج المتحصلة من العشورية بالرغم من أن مساحة الخراجية لاتزيد عن العشورية إلا ٢,٦ مرة . وتواصل الضريبة الخراجية الارتفاع حتى وصلت فى الوجه البحرى إلى ١٧٠ قرشاً بل و ٢٠٠ قرش فى بعض الحالات ..

وأصبح متوسطها فى مصر ١١٦ قرشا للفدان بينما متوسط الضريبة العشورية ٣٠ قرشاً للفدان(٢)

وفى عام ١٨٨١ أى قبيل اندلاع الثورة بقليل كان متوسط الضريبة الخراجية ١٢٩ قرشا بينما متوسط العشورية ٥٢ قرشاً(٣) .

ولم تكن ضريبة الأرض وحدها هى التى ترهق الفلاح فهناك عشرات الضرائب التى ظلت أذهان الطغاة تتفتق عنها عاماً بعد عام ..

---

(١) سليم خليل نقاش ، مصر للمصريين ، الجزء الرابع ص ٥١ .

(٢) لورد كرومر ، مصر الحديثة ، طبعة لندن ١٩٠٨ جـ ١ ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) باير ، المرجع السابق ص ٣١ .

فهناك ضريبة النخيل ثم ضريبة السدس أى سـدس المربو من الأموال وضريبة إعانة الحرب .

ليس هذا فحسب بل هناك ضريبة الفردة وهى ضريبة على كل شخص بالغ ماعدا الموظفين والعسكريين .. وضريبة الملح وضريبة علف الماشية. وهكذا سلسلة لا تنتهى بحيث إذا تحامل الفلاح على نفسه ودفع بعضاً منها لم يستطع أن يدفع الآخر(١) .

وعندما تحكم حملة الأسهم عن طريق الرقابة الثنائية فى مصائر الاقتصاد المصرى وبدءوا يخصصون إمكانيات مصر كلها لتسديد كوبونات قروض إسماعيل كان العبء الذى وقع على الفلاح رهيبا . .

فقد حاول ممثلوا الرقابة الثنائية أن يحصلوا على مزيد من البيض الذهبى من الأوزة فزادوا الضرائب الجمركية . . وزادوا أجور النقـل بالسكة الحديد .. لكن النتيجة كانت نقص البضائع الواردة إلى الميناء . . ونقص الشحنات فى السكة الحديد ولجوء التجار إلى النقل بالمراكب . .

ويحل يوليو بلا نقود كافية لتسديد كوبون هذا الشهر ولا يجد السادة الأوربيون سوى الفلاح ليلقوا عليه بالعبء كله ..

فاندفعوا يصادرون المحاصيل من أيدى الفلاحين « بحجة سداد المتأخر عليهم مع أن الضرائب دفعت قبل ميعادها بسنتين ثم باعوا هذه المحاصيل لشركة إنجليزية تسمى هوبتورث بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه(٢) .

ويضج الفلاحون بالشكوى .. ولا يجد مراسل التيمس الذى يؤكد أن المحاصيل المصادرة قد جمعت بأبشع أنواع القهر.. لايجد إلا الإعتراف بأن .. هذه المحاصيل جمعت سدادا لضرائب سبق أن دفعها الفلاحون ، إن المرء إذا ما استعرض صورة هؤلاء الفـلاحين الذين لدعتهم الفاقة

(١) فجر الحياة النيابية ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٢) روزنشتين ، المرجع السابق ص ١٠٦

وأصبحوا لايجدون من الزاد إلا مادون الكفاف والذين يعملون صباح مساء لملء جيوب السادة الدائنين إذا استعرض المرء ذلك تأكد أن تسديد الكوبون فى موعده عمل غير جدير بالمباهاة »(١)

وفى عام ١٨٧٩ كتب نائب القنصل الإنجليزى فى الأقصر قائلا : « إن فداحة الضرائب قد أجبرت الفلاحين على أن يبيعوا الأرض والماشية وكل شىء إلى مشايخ البلاد »(٢) .

وإذ كان ريف مصر قد شهد بعض الانتعاش خلال فترة رواج القطن فإن الفلاح الفقير الذى كان يرهن محصوله مقدما بأبخس الأسعار لدى المرابى الأجنبى أو الذى كان معدماً بلا محصول على الإطلاق قد قنع من هذا الرواج بمزيد من التعاسة فالأسعار ترتفع بجنون ..

القمح ارتفعت أسعاره بعد أقلع الناس عن زراعته وارتفعت أسعار كل شىء إلى درجة خيالية ..

يقول دافيد لاندز أن مصر البلد الذى كان دائماً مصدر البقول والحبوب إلى كل حوض البحر المتوسط قد أصبحت فى الوضع الذى كان فيه استيراد الأغذية من الخارج أمراً ضرورياً للتغلب على المجاعة .. وهكذا ارتفعت الأسعار بسرعة فأصبح ثمن القمح ثلاثة أمثال أو أربعة أمثال ثمنه فى سنة ١٨٦٤ وتضاعف ثمن الزيت والخضروات ثلاث مرات وارتفعت أسعار الحبوب والفول بنسبة ٤٠٠٪ وارتفعت أسعار لحم الضأن وهو الغذاء الثابت للمسلمين من ٤ بنس إلى شلن فى الرطل .. وكان الذين أثروا بسبب رواج القطن سبباً فى ارتفاع الأسعار ، بل تسببوا بإفراطهم فى الكماليات فى رفع الأسعار أكثر فأكثر »(٣)

---

(١) التيمس ٢٧ يوفيو ١٨٧٧ ، نقلا عن المرجع السابق ص ١٠٦

(٢) باير ، المرجع السابق ص ٣٠

(٣) لاندز ، المرجع السابق ص١٧٦

وهكذا وبينما كان الأثرياء يزدادون ثراء .. كان الفلاح يتصور جوعاً

ويورد روزنشتين وصفاً لحالة الفــلاح يقول فيه « يؤكد كثير من سكان الوجه البحرى أن الربع الثالث من ضرائب هذا العام يجرى تحصيله الآن بنفس الوسائل الشديدة التى كانت متبعة من قبل ولعمرى أن ذلك ليحمل على الاستغراب إذا قورن بما نسمعه من الأشاعات عن موت الفلاحين فى منعطفات الطرق ، وخراب مساحات واسعة من الأراضى وإقفارها من جراء الأعباء المالية الفادحة وبيع الزارعين لدوابهم والنساء لحليهن وتهافت المرابين على دور الرهن وملئها بسنداتهم وازدحام المحاكم بقضايا نزع الملكية والواقع إن حالة الفلاحين قد تحرجت وضاقت بهم السبل وسدت فى وجوههم المنافذ وحتى أسلسهم قيــاداً بدأ أنينه يسمع »(١) .

ويصف لاندز الحالة قائلا : « إن مصر لم يصبها من سوء الطالع كما أصابها سنة ١٨٦٣ المزدهرة حتى لقد بدا كأن القدر قد ندم على كرمه فى منح رواج القطن صمم على أن يقلب الميزان .

ففى شهر يونيو ماتت بعض الماشية فى الدلتــا ولم يكن المرض معروفاً . . وقبل نهاية الشهر اتضح أن الوباء لم يكن شيئاً عادياً فقد انتشر فى جميع أنحاء الدلتا وراح يقتل الماشية بجبروت غير معقول — حتى قالت المصادر أن نسبة الوفاء بلغت ١٠٠ ٪ وامتلأت فروع النيل البطيئة الجريان بآلاف الرمم المتعفنة وقبل نهاية سبتمبر أصبحت أغنى مديريات مصر خالية من الماشية وأخذ المرض المعدى فى الاتجاه نحو الجنوب

وفى بلد كانت فيه الآلة البخارية والقطار أمر جديداً لم يكن هناك

---

(١) روزنشتين ، المرجع السابق ص ١٧٦

أسوأ من هذه النكبة ، فآلاف السواقى التى تديرها الحمير والثيران توقف تاركة فدادين من الأرض الخصبة للصحراء .

وزاد الطين بلة أن اختار النيل هذه اللحظة ليحطم جسوره فى القاهرة والدلتا وكان ذلك أسوأ فيضان يمكن نذكره تلفت فيه من ٢٠,٠٠٠ إلى ٢٥,٠٠٠ بالة قطن وعشرات الآلاف من أكياس الغلال »(١).

ويكمل روزنشتين الصورة فيصف حالة المجاعة التى تفشت فى الصعيد سنة ١٨٧٨ فيقول .

« ضربت أطنابها فى الوجه القبلى بشكل لم يعرف مثله من أجيال عديدة . وإذ ذاك خرجت النساء بأطفالهن هائمات على وجوههن متنقلات من قرية إلى أخرى فى طلب لقمة من العيش حتى اضطررن فى كثير من الأحيان إلى أكل ما كن يجدنه من فضلات الطرق وحثالتها . ولقد قيل أن ما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ شخص قد ذهبوا ضحية المجاعة فى صيف هذا العام عدا الذى فتكت بهم الأمراض الناشئة من الفاقة كالدوسنتاريا وغيرها »(٢) .

وانتشر وباء الكوليرا . .

واشتد بؤس الفلاح إلى درجة لا مثيل لها .

وفى هذه المرة بالذات لم يلجأ الفلاح إلى الفرار بل أنه لجأ إلى الشكوى بصوت مرتفع .. لجأ إلى كتابة العرائض الجماعية . . وزحفت جموع لا أول لها ولا آخر على القاهرة تلقى آخر سهم من سهام الصبر شاكية باحثة عن العدل .

وكتب مراسل التايمز يقول : «يوجد فى القاهرة الآن مئات من العمد والمشايخ كل يمثل قرية من القرى جاءوا لتقديم العرائض بطلب تخفيض الضرائب .. ولقد حاصروا أبواب الوزارات حتى أنك تراهم متربصين حولها ينتظرون دخول الوزراء بينما عرائضهم قد غطت بلاط المصالح»(٣) .

---

(١) لاندز ، المرجع السابق ص ١٣٣

(٢) روزنشتين ، ص ١١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٨ .

وكانت العرائض سلاحاً جديداً . . سلاح أكثر ثورية كانت العرائض خطوة جماعية . . احتجاج جماعي . . كانت بديلا جديداً للفرار الفردى . . هى باختصار خطوة جديدة أكثر جرأة وأكثر تحديا للطغاة .

لكننا وقد انسقنا فى وصف الوضع القاتم بل والشديد القتامة لحياة الفلاح لابد لنا من أن نذكر قبسا من النور أطل ولو للحظة قصيرة فى ليل الفلاح المظلم :

وليس أمام المؤرخ الصادق الا أن يقرر فى صراحة أن صاحب هذا القبس هو محمد على . .

فأيا كانت الدوافع والأسباب فإن الذى لا شك فيه ان محمد على قد انتهك وبجرأة بالغة ذلك الستار الأسود الكثيف الذى ظل لقرون طويلة يلف القرية المصرية ويعزلها عزلا تاماً عن كل مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية . .

ولأن محمد على أراد أن يكون له جيش عصرى . .

ولأنه أراد أن تكون له صناعة حديثة . .

ولأنه أراد كتبة وموظفين وأطباء ومهندسين مصريين لجيشه وحكومته.

ولأنه لم يجد فى العنصر التركى لا القدرة ولا المثابرة ولا الطاعة .

ولأنه لم يجد فى العنصر الأوربى الاخلاص . .

لم يكن هناك غير الفلاح المصرى جندياً وعاملا .. وتلميذاً وموظفاً . .

ولم يكن سهلا أن يقتنع الفلاح الذى يتشكك فى كل . شئ قادم من المدينة والذى يتشكك على الأخص فى كل مايتعلق بالولاه وكل مايصدر عنهم . ولم يكن سهلا أن يرسل الفلاح ابنه إلى جيش الباشا . . ليخلع الجلباب ويرتدى بدله . . ويحمل بندقية ويسير فى طوابير منظمة . . وبعدها يسافر ليموت بعيداً فى روسيا أو فى الموره . . أو المكسيك :

بل إنه لم يكن سهلا أن يرسل الناس أولادهم إلى المدرسة رغم أن التلاميذ ينامون ويأكلون ويتعلمون ويلبسون بالمجان .. ثم بعدها يخرجون موظفون محترمين ذوى مرتبات لم يحلم بها أى فلاح .

وهكذا انطلق عساكر الوالى يخطفون الأولاد ليصبحوا جنودا وعمالا وتلاميذ . . وكانوا يقيدونهم بالسلاسل .. ليضمنوا ألا يهربوا فى الطريق ..

وفى سنة ١٨٢٩ كان تعداد الجيش المصرى ٦١٦ر٢٧٦ جنديا وبحار (١) .

وفى سنة ١٨٣٧ كان عدد المصانع ٢٩ مصنعا وعدد العمال فيها ٠٠ر٣٠ عامل (٢) .

وفى سنة ١٨٣٢ كان عدد تلاميذ مدرسة القصر العينى وحدها ٢٢٠ر١ من الطلبة (٣) لكن من أين أتى كل هؤلاء ..

لنرو بعض القصص

«كان من بين ما أنشأه محمد على دار صناعة (ترسانه) كبرى أقيمت بالأسكندرية لتبنى أسطولا جديداً وجمع لها محمد على من أولاد الفلاحين ثمانية آلاف من الصبيان والشبان ممن تظهر عليهم علامات الذكاء وكان من بين هؤلاء الصبية صبى أتى من قرية الطيبه بمديرية الشرقية يدعى مصباح ابراهيم (والد عبد الله النديم) (٤) .

.. وكانت «هناك ذهبية تمر فى النيل تتوقف عند كل قرية لينزل منها بضعة رجال يذهبون إلى الكتاب فيختارون أنجب ما فيه من تلاميذ .. ليمنحهم الإسناذ الموجود بالذهبية .. وتغادر الذهبية القرية ومعها الأطفال

---

(١) د.على الحديدى عبد الله النديم ، سلسلة أعلام العرب ص١٥ .

(٦) البراوى ، عليش التطور الاقتصادى فى مصر . المرجع السابق ص ٦٣ .

(٣) د . أحمد عزت عبد الكريم تاريخ التعليم فى مصر جـ ٢

(٤) د. على الحديدى المرجع السابق ص ١٤.

المختارون فى طريقهم إلى مدارس الباشا (١) .

أما الأستاذ فهو رفاعه الطهطاوى :

أما الأطفال النجباء الذين أختارهم فمن بينهم على باشا مبارك .. وصالح بك مجدى الذى أخذوه وسنه ست سنوات بدون علم والده فتعلم وترقى فى سلك الجهادية حتى أصبح أميرالاى وناظرا للمهندسخانة (٢) .

وفى الخطط الجديدة يروى على مبارك أسماء كثير من القرى ومع كل منها أسماء هؤلاء الطلاب النجباء الذى أصبحوا بعد بضع سنوات موظفين كباراً ورجال دولة مهمين ..

فقرية الكدايه (الجيزة) منها أبو بكر أفندى رامز أحد المهندسين الذى توظف بوظيفة خوجة رياضة بمدرسة الطوبجية ثم مفتش تنظيم بالمحروسة ومنها أيضا محمود أفندى ابراهيم وكان حكيم المدارس الملكية وتنقل فى المصالح والمدارس حتى وصل إلى رتبة البكباشى .

— ومن قرية كرداسة أحمد أفندى الأزهرى وكيل قلم الهندسة وكان يجيد اللغة التليانية والتركية وأخذ رتبة قائمقام .

أما كفر الباجور (منوفية) فقد ترقى من أهلها فى الخدمات الميرية حسن أفندى نجم مهندس . محمد أفندى عبد الغنى معاون بديون المالية ، محمد أفندى شعبان يوزباشى بالجهادية (٣) :

— ورفاعه الطهاوى نفسه ..

— والدكتور النبراوى .

و مئات بل ألوف من الصبية الصغار ينطلقون عبر الستار الكثيف .. ليذهبوا إلى المحروسة ويتعلمون .. ويصبحون « أفنديه »

بل أن المدارس نفسهاً تتجه إلى القرية ..

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب د. عزت عبد الكريم تاريخ التعليم فى مصر المرجع السابق .

(٢) الخطط الجديدة جـ ٨ ص ٢٢ المرجع السابق .

(٤) الخطط الجديدة . جـ ١٥ ص ٤ المرجع السابق .

بل أن المدارس نفسها تتجه إلى القرية ..

فقرية نبروه (كان بقربها مدرسة للزراعة أنشأها العزيز محمد على وجلب لها من البلاد الاوروباوية المعلمين والخوجات وآلات الفلاحة المستعملة فى بلادهم وجعل فيها من أطفال أهل القطر وشبابهم أربعين تلميذا لدراسة قواعد فن الزراعة الذى عليه مدار الثروة .. وكذا صناعة استخراج السمن والجبن من اللبن(١) .

ولم يكن كل ذلك بلا أثر ..

ويؤكد الشيخ محمد عبده فى مناقشة له مع لورد إنجليزى « أن أرض مصر من زمن محمد على قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود فى بلاد أوربا وأخذ كل مصرى نصيبا منها على قدره ولا يخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون كاتبون ، والأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبىء الأخبار من القارئين فبهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعى والتقليد الدينى محبه وطنية منشؤها التهذيب العمومى ، قوى بها الميلان الأولان ولا أظنهم يخالفون فى ذلك سائر الأمم»(١)؛

هكذا بدأت الاستار الكثيفة تنزاح بعيدا عن القرية .

وعندما اشتد الظلم من جديد .. وعندما تكالبت الضرائب والمقابلة وارتفاع أسعار .. والسخره .. والكوليرا .. والمجاعة على الفلاح .

لم يلجأ إلى الفرار فى هذه المرة ..

بل لجأ إلى أحد « القارئين الكاتبين» ، كما وصفهم محمد عبده ليدبج له عريضة .. يرفعها إلى مراحم الخديو .. أو الباشا الوزير ..

وبين العرائض الجماعية .. وبين الاحتجاج الجماعى.. فارق بسيط ..

وفى يوليو ١٨٦٩ كتبت صحيفة البروجريه المصرية « إن الفلاح المصرى

---

(١) الخطط الجديدة . المرجع السابق ج ١٧ ص ٢ .

(٢) نقلا عن مقال قصة الحزب الأول — محمد عودة مجلد الكاتب عدد يونيو ١٩٦٤ ص٢٩ .

قد بدأ يخرج من صمت العبودية الذى كان يرزح تحته قرونا وبدأ يجأر بالشكوى مما لم يرو عن مثله فى مصر »

وكتبت تقول « أن الرأى العام قد بدأ يتكون فى مصر »

.. وحول هذا الموضوع يقول الميثاق الوطنى

« أن روح هذا الشعب لم تستسلم .. وإنما استطاعت تحت المحن العصيبة فى هذه الفترة أن تختزن طاقات تحفزت لإطلاقها فى اللحظة المناسبة . . وكانت هذه الطاقة هى العلم الذى حصل عليه آلاف من شباب من الرواد ممن أرسلوا أيام الصحوة التى سبقت النكسة من حكم محمد على إلى أوربا ليتمكنوا من العلم الحديث فإن هؤلاء استطاعوا بعد عودتهم إلى الوطن أن يجلبوا معهم بذورا صالحة ما لبثت التربة الثورية الخصبة لمصر أن احتضنتها لتخرج منها بشائر نبت ثقافى جديد راح ينشر ألوانا رائعة من الأزهار على ضفاف النيل الخالد »

. . إنها بذورا لثورة .. وبشائر لانطلاق الشعب .

٣

« إننا لا نرضى الظلم ولا تسكت
عليه لا دفعا لضرر خاص بنا، بل حبا
فى الرغبة ومرادنا من أوله إلى آخره
نصرة الحق من غير ابتغاء منفعة » .

السيد عمر مكرم

المدينة موطن الأزهر . . والتجار . . وأبناء البلد

حاول عبد الله النديم ذات يوم أن يحلل الوضع الطبقى فى القاهرة

فلم يجد أبلغ من هذه الكلمات :

أهل البنوكا والأطيان صاروا على الأعيان اعيان

وابن البلد ماشى عريان ممعاه ولا حق الدخان

شرم برم حالى غلبان

ياما نصحتك يابنجر وقلت ذلك أوعى بعجر

فضلت تسكر وتفنجر لما صبح بيتك خربان

شرم برم حالى غلبان

الحق عندك ياخـويه ياللى طليت وشك بويه

ولبست سروال أبو أويه ومشيت تقلد لى السوان

شرم برم حالى غلبان

بعنا العمايم بالطربوش والعرى بالتوب المنقوش

صبحت بلادنا للمغشوش مورد وصانعها ظمآن

شرم برم حالى غلبان

أوعى تفوت دى الكارياهباب وتمشى ماسك لك فى كتاب

يستهلوك كل الأجناب وبعـد عـزك دا تنهان

شرم برم حالى غلبان

أحسن دا فن بناه مساكين سهروا ليالى فيه وسنين

وحصلوا منه التموين لكن رماهم فى الحرمان

شرم برم حالى غلبان

شوف الجهالة ياسيدنا — اللى جلبناها بايدنا
حتى صبحنا يوم عيدنا — نسمع بلادنا تنشدنا

شرم برم حالى غلبان (١)

والحقيقة أنى لم أجد تحليلا أكثر دقة وأكثر تعبيراً من هذه القصيدة ففى دروب القاهرة وحواريها الضيقة لم يكن ثمة شىء جديد . . نفس المبانى القديمة والبيوت العتيقة . والحوارى المتربة الملتوية . . لكن الناس كانوا يتغيرون وبسرعة فى تلك المدينة العظيمة وفى شقيقتها الإسكندرية .

والمدينة فى كل مكان هى قلعة التجار . . ومجال نشاطهم ونفوذهم .. لكن تجار القاهرة كانوا بلا نفوذ وبلا استقرار .

وكانت محلاتهم الضيقة ذات العتبات العالية عرضة لغازات الجنود العثمانية من مختلف الأجناس والألوان .

كانت الأوضاع غير مستقرة حتى أن التجار كانوا يتركون أبواب دكاكينهم نصف مغلقة فإذا مابدت من بعيد طلائع الجنود النهابين أغلقت الأبواب سراعا .

ويحكى الجبرتى كثيرا من قصص النهب هذه .. وقصص العربان الذين يقطعون السبيل على القوافل .. ويروى قصة « قافلة مكونة من أكثر من ستة آلاف جمل كانت تحمل التجار بين السويس والقاهرة نهبها العربان »

وعندما يشتد البطش العثمانى أو المملوكى لم يكن أمام التجار سوى أن يلجأوا إلى علماء الأزهر شاكين مطالبين بالأصناف

وأحيانا تنقلب الشكوى إلى ضجة .. والضجة إلى حماسة للمشايخ .. فإلى انتفاضة أو ثورة .

وهذا الالتجاء إلى الأزهر يعنى أن التجار لم يكونوا أصحاب النفوذ فى المدينة ربما لضعف مكانتهم الاقتصادية بتتالى عمليات النهب .. وربما

---

(١) د . الحديدى : عبد الله النديم . المرجع السابق ص ١١٦ . نقلا عن التنكيت والتبكيت .

لأن كثيرين منهم « كانوا فى الأغلب من المغـاربة والحجازيين والشوام والحضرموتيين» » (١)

لكن الأمر لم يخل من بعض تجار كبار كونوا ثروات ضخمة وأصبحت بيوتهم كما يقول الجبرتى « بيوت العز حتى أن أمراء المماليك كانوا يدخلونها فى احتشام »

ويتحدث الجبرتى عن تاجر إسمه الحاج الشرايبى فيقول أنه كان من أعيان التجار المشتهرين كأسلافه ، وبيته المشهور بالأزبكية بيت المجد والفخر والعز ومماليكهم أولاد مماليكهم من أعيان مصر وكان رضوان كتخدا يتفسح عند الحاج الشرايبى فى كثير من الأوقات مع الكمال والاحتشام ولا يصحبه فى ذلك المجلس إلا اللطفاء من ندمائه .. (٢)

ويأتى محمد على ويكون نظام الاحتكار ضربة قوية للبرجوازية المصرية التى ضعفت إلى حد كبير .. وإذا كان محمد على قد أقام المصانع ونظم معاملات تجارية ضخمة وأقام جهازاً إداريا منظما إلى حد بعيد فإن كل ذلك كان مفترضا فيه أن ينعش البرجوازية المصرية لكنه قام فى واقع الأمر عـلى حسابها .. وضعف النفوذ التجار وقلت ثرواتهم .. أما الحرفيون فقد تحولوا إلى أجراء .. (١)

وعندما انهار نظام الاحتكار واستجمع النشاط التجارى أنفاسه بصعوبة بالغة وجد نفسه فى وجه مزاحمين جدد .. فانهيار أحلام محمد على قد صاحبه امتداد النفوذ الاجنبى إلى مصر « واستنادا إلى الامتيازات الأجنبية التى كانت تعفيهم من دفع الضرائب والتى كانت تمنحهم الحق فى أن يحاكموا أمام محاكمهم الخاصة واستنادا ، إلى الوصاية السياسية الدولية التى بدأت بمعاهدة

---

(١) مقال من يوميات الجبرتى وسيم خالد المرجع السابق ص ٥٢ .

(٢) مقال وسيم خالد .. المرجع السابق .

(٣) مقال مصر من الأقطاع إلى الرأسمالية . د . محمد أنيس . المرجع السابق .

١٨٤٠ أخذ هؤلاء الأوربيون يستثمرون أموالهم فى مصر حتى سيطروا على معظم تجارتها وكافة أنواع النشاط المالى فيها » (١)

وإذا كان التجار المصريون قد استعادوا أنفاسهم . وبدأ بعضهم يكون ثروات كبيرة وبدأوا يشقون لأنفسهم طريقاً وسط المنافسة الأجنبية الضارية ..

وإذا كنا قد قرأنا فى الخطط الجديدة اخبارا عن تجار كبار كونوا ثروات كبيرة مثل محمود محمود محرم الذى يقول عنه على مبارك « أنه الخواجا المعظم والملاذ المفحم سيدى الحاج محمود بن محرم أصل والده من الفيوم واستوطن مصر وتعاطى التجارة وتربى له الحاج محمود المذكور . . تربى فى العز والرفاهية ولما ترعوع وبلغ رشده خالط الناس وشارك وأخذ وأعطى رظهرت نجابته وسعادته حتى كان إذا أمسك التراب صار ذهباً فسلم له والده زمام الأمور فشاع خبره بالديار المصرية والحجازية والشامية والرومية »(٢) .

ثم هناك عائلات الطرزى والمهجين وغيرهم .

لكنهم كانوا من الطراز القديم وكانت تراكمات أموالهم تتحول سريعاً كما أشرنا من قبل إلى شراء أرضى زراعية . . ولعل هذا فى هذا فى حد ذاته كفيل باكسابهم طبيع الأعيان والذوات وليس التجار المضاربين .

وإذا كانت تراكمات الاستثمارات التجارية المصرية تتجه نحو الزراعة . . فإن ذلك يعنى بطبيعة الحال إفساح المجال تماماً أمام الأجانب للمضاربة والاستثمارات المالية .

ثم أن التجار المسلمين كانوا يتحرجون من عمليات الاستثمار المصرفى ويصفونها بأنها نوع من « الربا » .

---

(١) د أنيس المرجع السابق .

(٢) لإنذر الجديدة .. جـ ٥ ص ١١٠ .

وثمة سبب ثالث يورده لاندر « فالمجتمع المصرى لم يحتوى على المقاولين والمستثمرين والمهندسين القادرين على تحقيق ثورة اقتصادية . . أو يملك القيم التى تشجع تجنيد رجال الأعمال والفنيين التقدميين . كان الأوربيون وحدهم القادرون على تقديم رءوس الأموال والمهارة القادرة على تطبيق تكتيكات وإنشاءات الحضارة الغربية »(١) .

وهكذا يزدهر النشاط المالى ازدهارا رائعا لكنه ازدهار أجنبى محض .

« فالشركات الزراعية والتجارية التى تألفت فى عصر إسماعيل كان حوالى ٩٦ ٪ من رأس مالها أوربيا والبقية موزعة بين الخديو والباشوات والأتراك » (٢) .

وفى كتاب « بنوك وباشوات » أمثلة كبيرة المشتركات والمصارف التى تكوت فالشركة للتجارية المصرية تملك أسهمها الشركة المالية الدولية (١٠٠ ألف جنيه) ومجموعة سولزباخ فى فرانكفورت (٣٠٫٠٠٠) ولكل من فرونج وجوش وأوبنهايم وديرفيو وآخرون مقادير مماثلة »(٣) .

أما شركة الملاحة التجارية المصرية التى أسسها اسماعيل لتمصير البحرية المصرية فقد أخذ اسماعيل نصف أسهمها . . والنبلاء وأعضاء الأسرة المالكة ١٦٫٠٠٠ سهم وسكاكينى وديرفيو وعدد آخر من الأجانب بقية الأسهم(٤) .

كانت الرأسمالية تنمو . . لكنها كانت جميعا فى أيدى الأجانب

(١) لأندر . بنوك وباشوات ص ٨٧ .
(٢) د . محمد أنيس . المرجع السابق .
(٣) لأندو بنوك وباشوت ص ١٥٤ .
(٤) المرجع السابق ص ١٣٥

أما التجار المصريون فقد كان نصيبهم هو عمليات الاتجار الداخلى .. لكنهم حتى فى هذا المجال لم يتركوا بلا ملاحظة .

فالضرائب ترتفع كلما ازداد اسراف اسماعيل .. فيفرض عليها « رسوماً دخولية فى الاسكندرية والمحروسة ٣ قروش أميرية عن كل جمل كارو بلدى من جبس أو جير ، ٦ قروش عن كل حمل كارو بزوج خيل .

ثم ضرائب على العربات وحيوانات الأجرة .

٣٠ قرش أميرى عن كل حمار ملاكى ببردعة .

٥٠ قرشا عن كل حصان(١) .

وزادت الضرائب الأخرى زيادة كبيرة جدا .

والتجار تحت كل هذا الضغط لا يسلمون من منافسة شبكة التجار الأجانب الذين زاد عددهم زيادة كبيرة جدا (سنة ١٨٣٦ كانوا ٣٠٠٠ ، ١١٨٧٨ بلغوا ٦٨٫٠٠٠)(٢) وامتد نشاطهم حتى أعماق الريف .

والمنافسة قاسية لا ترحم إذا كان الأجنبي يحتمى بالامتيازات والقناصل .. والمحاكم القنصلية .. وبإعفائه من الضرائب بكافة أنواعها .

يقول روزنشتين « إن الأجانب رغما عن أعمالهم المالية والتجارية الواسعة أعفوا من الضرائب وأصبح ما يدفعه التجار المصريون فى العام من ضرائب المدن هذه هو ٤٣٠٫٠٠٠ جنيه عقبة فى سبيل منافستهم للأوربيين فى الشئون التجارية » (٣) .

وهكذا ظل التجار باستمرار فى مركز ضعيف .. وعجزوا تماما عن

---

(١) مصر للمصريين. المرجع السابق ج ٤ ص ٣٨ .

(٢) د . محمد أنيس . المقال السابق الإشارة إليه .

(٣) روز نشتين المرجع السابق ص ٢١٤ .

أن يتولوا قيادة المدينة . . تاركين الأمر لفئة أكثر شعبية وأكثر قوة هي العلماء . .

فالمشايخ الذين يستندون إلى جموع أبناء البلد الذين كانوا يلبون أول نداء فتجمع جموعهم فى صحن الأزهر هاتفة « لا اله إلا الله . . محمد رسول الله » و « يارب يامتجلى أهلك العثمالى » .

هؤلاء المشايخ كانوا قوة حقيقية وزعامة فعلية ظلت تمارس تأثيرها فى المدينة جيلا بعد جيل ولقد وجدت هذه الزعامة من حرمة الأزهر الشريف ومن مساندة الجموع الشعبية القدرة والجرأة إلى الحد الذى حشدت فيه جموعها أمام الوالى التركى خورشيد باشا تطالبه ولأول مرة بالتنحى عن الحكم فقال لهم الباشا فى شموخ « لقد ولانى خاقان البرين والبحرين ولن يعزلنى الفلاحون » .

فينبرى ممثل هؤلاء المشايخ السيد عمر مكرم قائلا « هذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها »(١).

ولم تكن هذه هى الواقعة الوحيدة للسيد عمر مكرم .

فهو يعلن فى وجه مندوب محمد على فى جرأة بالغة أنه « إذ أصر الباشا على مظالمه فاننا نكتب إلى الباب العالى ونثير عليه الشعب وانزله عن كرسية كما أجلسته عليه » .

وعندما يرسل محمد على بياناً بمصروفات حكومته للسيد عمر مكرم . . يرد عليه بتعليق عنيف قائلا « أن مـــا جباه من الاهالى لاقامة سد ترعة الفرعونية يزيد كثيرا عما صرفه عليها وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له وان وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصرى من الضرائب والمظالم لما وسعته الدفاتر . . »(٢)

---

(١) نعمان عاشور صور من البطولة والأبطال ص ٩ .

(١) محمد صبيح . المرجع السابق ص ١٢٦ .

هكذا كانت الزعامة الدينية قادرة بالفعل على مواجهة الطغاة وحشد الجماهير الشعبية واستخدامها سلاحا يوقف الولاة عند حدهم .

لكن محمد على كان قادرا على اللعب بمهارة . . فقد استطاع أن يحول كبار المشايخ إلى كبار ملاك ومنحهم التزامات كثيرة .

يقول باير « فى بدايات حكم محمد على أصبح كبار المشايخ « ملتزمين » لاقطاعات كبيرة وأصبحوا على جانب كبير من الثروة فأخذ الشيخ الشهير محمد السادات التزام زفتى وقلقشنده .

وكان الشيخ على القيسى شيخ الجامع الأزهر يمتلك أرضا واسعة فى قوص وأسيوط والشيخ حسن العدوى الحمزاوى ذو النفوذ الكبير أيام محمد على كان يمتلك ثروة كبيرة بالقاهرة بالإضافة إلى ألف فدان »(١) .

ويقدم الجبرتى فى حسرة النتيجة المنطقية لكل هذه الثروة فيقول فى عجائب الآثار أن كبار المشايخ « قد افتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ القاموس مع ترك العلم بالكلية . . وصار بيت أحدهم مثل أحد الأمراء الألوف الأقدمين واتخذوا الخدم المندمية والاعوان واجراء الحبس والتعذيب والضرب بالفلقة والكرابيج . . وصدرت لهم استعجالات وتحذيرات وانذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين . . وانقلب الأمر فيهم بضده وصار ديدنهم واجتماعهم بذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائظ والمضاف و . . . الخ »

وإذا كان كبار المشايخ قد انعزلوا عن آمال الشعب . فان الأزهر قد ظل على الدوام جامعة للفلاحين الفقراء الذين يتزجون اليه من كل مكان يعيشون فى رحابه ويتلقون العلم فى أروقته . .

(٢) باير : المرجع السابق ص ٦١ ، ٦٢ .

وظل الأزهر على الدوام موطناً للتيارات الثورية التى انتقل عبوها إلى الشيوخ الصغار ...

وإذا كان المشايخ الكبار يرون الاكتفاء بترديد الكتب القديمة ويرفضون أى دراسة لغير العلوم الشرعية ويرددون فى حسم صارم ماجاء فى جوهرة التوحيد » : فإن حركة ثورية كانت تموج وسط العلماء

الصغار تدعوا إلى دراسة العلوم العقلية والعصرية ، ويحمل الشيخ العطار والشيخ الطويل لواء الدعوة للتجديد ثم إن فتى أزهرياً يذهب إلى باريس ويعود ليعلن فى صراحة ووضوح أن « مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة متوط بأولى الأمر بهذه العصابة (يقصد علماء الأزهر) التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع أعلام الشريعة المنيفة معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقديم الوطنية..لاسيما وأن هذه العلوم الحكيمة العلمية التى يظرر الآن أنها أجنبية هى علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتابات العربية (١)

لكن صيحة الطهطاوى لاتحسم النزاع .. ويظل الأمر معلقاً حتى يضطر دعاة الإصلاح إلى اللجوء إلى حيلة شرعية فكلفوا عالماً تونسياً هو الأستاذ محمد بيرم أشهر علماء جامع الزيتونة أن يرسل إلى الشيخ الانبابى شيخ الجامع رسالة يسأل فيها « ما قولكم رضى الله عنكم .. هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعات ؟ » :

ويجيب الانبابى

يجوز تعلم هذه العلوم .. »

على أن الصراع داخل الأزهر لم يقف عند هذا الحد ..

بل إن نضال الضباط المصريين ضد الشراكسة والتسلط التركى فى

---

(١) رفاعه رافع الطهطاوى مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية . ص ٢٧٣

الجيش .. يجد صداه بين طلاب الأزهر الفلاحين وكلهم مالكية شافعية .. فيقاومون بقاء شيخ حنفي (والحنفية هي مذهب الأتراك) وتدور معركة عنيفة تنتهي بإبعاد الشيخ العباسي (الحنفي) وانتخاب الشيخ الامبابي (الشافعي) بدلا منه (١)

وإذا كان مثقفوا الأزهر يخوضون المعركة وفق تقاليد الأزهر فثمة مثقفون جدد هم نبت الحركة الثقافية التي ازدهرت أيام محمد علي .. ونبت الحركة التعليمية التي ازدهرت إلى حد كبير في عهد إسماعيل .

فالمدارس الكبيرة التي كان عددها سنة ١٨٦٢ — ١٨٥ مدرسة فقط تصبح في سنة ١٨٧٥ — ٤٨١٧ مدرسة بها ٦٠٤٨ مدرساً و٧٢٢و٢٧ طالباً

والحقيقة أن انتشار التعليم الحديث كان يمثل طفرة جديدة في حياة البلاد ..

وبدأ الخريجون يشكلون طبقة مستنيرة من المدرسين والموظفين ورجال الفكر تتطلع بطبيعة الحال إلى احتلال مكان مرموق في أجهزة الدولة ..

وكان الخريجون يرجعون بأذهانهم إلى المناصب والترقيات السريعة التي حازها خريجو عصر محمد علي واستعد كل منهم لينال نصيبه هو الآخر

لكن الأجانب الذين سدوا الطريق أمام التجار الوطنيين كانوا يسدون الطريق أيضاً أمام الخريجين المصريين ..

يقول روزنشتين « لقد زاد عدد الموظفين الأجانب باطراد وفي الفترة من ١٨٦٤ ، ١٨٧٠ عين ١٦٠ أجنبياً وفي ١٨٧١ — ١٨٧٥ عين ٢٠١ ، في ١٨٧٦ وحدها جيء بما لا يقل عن ١١٩ أجنبياً حشروا في سلك الخدمة الحكومية حشراً وفي ١٨٧٧ عين ٧٦ وفي ١٨٧٨ — ١٣١ .. »

---

(١) لمزيد التفاصيل راجع : التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر — ويلفرد بلنت طبعة لندن سنة ١٩٠٧ ص ١٦٥ .

(٢) فجر الحياة النيابية ص ٨٢ .

ويعلق مراسل التيمس على ذلك قائلا « أن معظم كبار الموظفين قد أصبحوا من الأجانب الذين تصرف لهم مرتبات ضخمة لتهدئة حنينهم إلى الوطن ولتعويضهم عن آلام الغربة وقد حشرت المنافسات الدولية ثلاثة أو أربعة موظفين فى عمل لا تحتاج تأديته إلا إلى شخص واحد »

ويكتب نفس المراسل فى رسالة أخرى « إن التذمر من جيش الموظفين الأجانب الذين جيء بهم لإصلاح مصر قد أصبح عاماً .. فهم يتقاضون مرتبات ضخمة يبلغ مجموعها ٦٠٫٠٠٠ جنيه سنوياً فى مقابل الأعمال التافهة التى يقومون بها » .

.. ويتزايد عدد الموظفين الأجانب حتى يبلغ فى مارس ١٨٨٢— ١٣٥٥ موظفاً مجموع مرتباتهم ٣٧٩٠٥٦ جنيهاً سنوياً .. بينما كان عدد الموظف المصريين جميعاً ٩٢٠٠ فقط ..

لكن أهم من ذلك كله أن المناصب الرفيعة كانت للأجانب .. والأجور العالية كانت لهم .. وفوق هذ وذالك كان الأجانب يقبضون مرتباتهم بانتظام أما المصريون فلم يحدث أن قبضوا مرتبهم شهرين متتالين .. بل ظلوا قرابة العام بلا مرتبات على الإطلاق (٢) ..

ولم يكن الأجانب هم المنافسون الوحيدون .. فهناك الأتراك والشراكسة وهناك أيضاً أبناء كبار الملاك .. ذلك الجيل الجديد من شباب الأعيان الذى امتد نشاطه إلى دواوين الحكومة فارضا سلطانه ونفوذه ..

وثمة نموذج غريب لعله يعبر عن قيام نوع من الإقطاع الوظيفى .. قلينى فهمى باشا .. وهو ابن أحد الملتزمين الكبار .. وكان « يدير جملة مصالح فى آن واحد نذكر منها مصلحة الدخوليات بمصر واسكندرية وعموم مدن القطر المصرى ويدير أيضاً مصالح الملح والقطرون ومصالح مصايد الأسماك بالنيل وفروعه بالبحر الأبيض ومصلحة الملاحة من وابورات

---

(١) روزنشتين — المرجع السابق ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٩ .

ودهبيات ومراكب وفلايك ومعادى ونحو ذلك من كبارى وأهوسة ومصلحة الضربخانة ودمغة المصاغات وكان أيضاً وفى الوقت عينه عضواً بلجنة تعيين المستخدمين بالحكومة ورئيساً لمجلس التأديب وبلجان عديدة » (١) .

وهكذا كانت المدينة تغلى بأطرافها المختلفة . التجار فى حالة كساد ويلاقون منافسة غير عادلة .. وغير شريفة ..

المدرسون والطلاب من أبناء الفلاحين فى الأزهر ينقلون أحاسيس قراهم التى تفنيها المجاعة ويترجمونها تذمراً ضد الجمود وضد الشيخ ممثل المذهب الحنفى .. والمثقفون المحدثون يعانون مما هو أقسى وأمر ..

ليس هذا فحسب بل هناك عوامل أخرى ..

هناك أولا مجلس النواب الذى صنعه إسماعيل وسيلة للمباهاة ولتدعيم مركزه فى أعين الماليين الأوروبيين ولابتزاز مزيد من المال من الأعيان فتحول وبالتدريج منبراً لترجمة السخط الذى يملأ صدور المصريين جميعاً بتداء من كبار الأعيان .. إلى الطالب المجاور فى إحدى أروقة الأزهر .

وفى ١٦ أبريل ١٨٧٩ كتبت التيمس اللندنية عن مجلس النواب المصرى تقول : « هذا المجلس لم يعد موضع سخرية واحتقار لأحد . . فإن أعضاءه قد أثبتوا مراراً أنهم على جانب من الجاه والاستقلال ولم تكن المرة الأخيرة بأقل من سابقاتها فإن رياض وزير الداخلية ذهب أخيراً ليختتم رسمياً دور الانعقاد ، وقد وجه للأعضاء خطاباً رقيق العبارة يتعلق بخدماتهم الماضية وأعلنهم أن واجباتهم قد أديت على أكمل وجه ولكنه لم ينجح فى تمثيل دور كروموبل لأن المجلس رفض اقتراحه وقام أحد النواب وصرح باسم البرلمان أن الأعضاء لم يعملوا شيئاً وأن مهمة الإشراف على أعمال الوزارة لا تزال قائمة . . وهذا يدعوهم للبقاء وقد أيده زملاؤه بالإجماع والتفوا حوله التفاف النواب حول ميرابو فى فرساى إبان الحوادث

(١) زكى فهمى — صفوة العصر — المرجع السابق ص ٣٠٦ .

المشهورة ولا يزال البرلمان المصرى يعقد جلساته ويقول الآن أن جميع الوزراء مصريين وأجانب يجب أن يخضعوا لإرادته وأن يكونوا مسئولين أمامه عن أعمالهم والحقيقة أنهم يريدون تحويل الحكومة المسئولة شكلا إلى حكومة مسئولة فعلا(١) ».

ولعل أفضل تعبير عن الحالة التى وصلت إليها الأمور هو ما قاله أحد النواب فى هذه الجلسة معلنا أنه إذا لم توافق الحكومة على وجهة نظر المجلس « فإنه ربما يحصل من الأهالى أمور لا يصح وقوعها ويكون مجلس النظار تحت المسئولية(٢) »:

وتخوض الصحافة — هى أيضاً — المعركة بحماس بالغ وتقف ضد الأجانب وتشن جريدة الوطن حملة مركزة على مدير السكة الحديد الإنجليزى وعلى الحكم المطبق وعلى الوزارة الأجنبية.

وعندما تحتدم المعركة بين مجلس النواب والوزارة.. يجد المجلس سنداً قوياً فى الصحافة الوطنية التى تقف إلى جواره معلقة على اقتراح عبد السلام المويلحى ومحمد العطار بإلغاء الضرائب القديمة قائلة أيهما « قد علما الشعب أن فى السويداء رجالاسودتهم نفوسهم فلا تسام خسفاً وتضام عسفاً(١) ».

وتشن التجارة حملة على الوزيرين الأجنبيين قائلة « أن عهد الحرية قد بدأ وأنهما لم يعد لهما مكان فى مصر ».. وتغلق التجارة ١٥ يوماً.. وتتحدث الوطن عن مجلس النواب قائلة « وأنه الباعث الحقيقى على بث المساواة والحقوق »(٢).

ولعل أهم ما حققته الصحافة — فى ذلك الحين — هى أنها قد طوعت

---

(١) مقال قصة الحرب الأولى فى مصر. محمد عودة. المرجع السابق.
(٢) فجر الحياة النيابية. المرجع السابق ص ١١٩.
(١) جريدة التجار — عدد ٨ فبراير ١٨٧٩.
(٢) الوطن عدد ١١ يناير ١٨٧٩.

لغة حديثها بحيث يستطيع القارىء العادى أن يفهمها . . فكانت وبحق مدرسة للشعب وانتهى عهد الصحافة المعزولة عن الجماهير والتى تكتب للخاصة من الناس بأسلوب متعال لا يفهمه أحد . . .

وإذا كان رفاعة الطهطاوى هو صاحب هذا الاتجاه عندما أكد أن المقال الصحفى يجب « ألا يتكلف فيه التغير بما يستلزم الاستعصاء والاباء مما كان جارياً على ألسنة العرب العرباء . . وحيث لا يحتاج العموم إليه ولا يتوقف تدوين العلوم عليه . . فإن المرام من صدورها بهذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجمها المستورة(١) .

– فإن يعقوب صنوع والندیم يصلان بالمقال الصحفى إلى العامية البحتة التى تصل مباشرة إلى قلوب أبسط الناس . . فلا تحتاج كما يقول النديم « إلى ترجمان يعبر عن موضوعها ولا شيخ يفسر معانيها وإنما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما نعلم وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ونديم يسامرك بما تحب وتهوى(٢) » .

وتتصق الصحافة بالجماهير . . وتتداولها الأيدى فى سرعة غريبة . .

ويطبع النديم من العدد الأول للتنكيت والتبكيت ثلاث آلاف نسخة فلا تزيد منها إلا خمس نسخ فقط وبعد ذلك كانت الأعداد تنفد ساعة صدورها ويتخطفها الناس فى المدن والقرى وخاصة رجل الشارع الذى وجد لأول مرة مجلة تهتم به وتصور له مشكلاته(٣) . . »

وتصبح الصحافة سلاحاً خطيراً فى أيدى القوى الوطنية توجه بها الهجمات ضد الأجانب والمستبدين .

---

(١) مقال . أبطال الدفاع عن اللغة العربية . د . عبد اللطيف حمزة . مجلة الثقافة عدد ١٣ — ٧ — ٦٥ .

(٢) التنكيت عدد ٦ — ٦ — ١٨٨١ .

(٣) د . على الحديدى . المرجع السابق ص ١١٤

ويتطلب الأمر صدور إخطار رسمى من إدارة المطبوعات يقول :

« تعودت الجرنالات العربية من مدة على الخوض فى كلام يتعلق بالأجانب مع غاية الحدة وإظهار التأثر منهم والتغيظ بلا سبب ولا موجب لا يراعون فى كلامهم حالة البلاد المصرية وعلاقاتها السياسية . ولذا لزم إخطار الجرائد العربية عموماً وإنذارها بألا تخرج فى مقالاتها عن حد الاعتدال وألا تتعرض بشىء من الطعن والتنديد بأحد من معاهدينا لا على وجه العموم ولا الخصوص وأى جريدة تأتى بما يخالف هذا الإنذار يعاقب صاحبها أشد العقاب بدون أن يقبل منه فى ذلك عذر بوجه من الوجوه » .

لكن جريدة الحجاز تستمر فى هجومها على الأجانب فتصدر قرار مجلس النظار فى ٨ نوفمبر ١٨٨١ بإلغاء الجريدة لغوا مؤبداً »(١) .

وتوقف التجارة ١٥ يوماً . . وعطلت مرآة الشرق شهراً . . « لأنها اعتادت الدخول فيما لايعنيها » ثم عطلت مصر والتجارة نهائياً « لأنها نشرت مقالات غير معتدلة تخدش الأذهان » .(٢)

لكن المعركة الصحفية تستمر على أشدها .

فلا مناص إذن من صدور قانون للمطبوعات ، وفى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ صدر قانون شديد الصرامة .

• يفرض دفع ١٠٠ جم كتأمين لإصدار الصحيفة م ١٢ .

• ويفرض إستصدار إذن خاص قبل إصدار أية صحيفة أو رسالة تشتغل بمواد سياسية أو إدارية أو دينية وتصدر بانتظام أو بغير انتظام ..م١١

ويعطى للحكومة فى كل الأحوال الحق فى حجز وضبط جميع الرسومات والنقوشات مهما كان نوعها أو جنسها وسواء كانت مختفية أو معرضة لنظر . م ٩(٣)

---

(١) سليم خليل بقاش مصر للمصريين . حـ ٤ ص ٢١٨ .

(٢) بلنت المرجع السابق ص ٦٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٤ .

وهكذا يحاول الطغاة أن يكتموا عن الشعب صيحة التحرر واليقظة . . لكن بعد أن فات الأوان .

وثمة عامل ثالث . . هو جمال الدين الأفغانى .

وإذا كان بإمكان فرد واحد أن يصبح عنصراً فعالا فى حياة أمة . . فإن هذا الفرد هو الأفغانى .

فالأفغانى كان الشخصية الثائرة الشجاعة المفكرة الواعية . . التى استطاعت أن تعبئ السخط وأن تجلو عنه غشاوات الماضى محددة الحقائق ببساطة شديدة ووضوح تام (لنشق قلب الطغاة) و (الحرية ، الإخاء ، والمساواة) .

وهنا تصبح الانفعالات المتخبطة والتذمر التلقائى عملا مخططاً وشعارات واضحة .

لكن أعظم ما فى الأفغانى أنه كان ذلك الشخص الذى استطاع أن يجمع كل قوى البرجوازية الصغيرة والمتوسطة فى المدينة .

فهو رجل دين . . ومثقف عصرى فى وقت واحد .

وهو يحارب الأجانب ويدعو لحرية التجارة وتخليصها من تسلط الغرباء . . وهو يدعو لحكومة مسئولة تخضع لمجلس نيابى وفى إطار إسلامى .

هو باختصار يعبر عن أمانى كل القوى المتذمرة فى المدينة ويجلو الغموض عن طريقها ويحدد معالمه واضحة صريحة .

وفور استقرار الأفغانى فى مصر التفت حوله مجموعة من الشباب المثقف . . أزهريين وعصريين . . وكونوا ما يشبه الحلقة الدراسية السرية .

من هؤلاء محمد عبده ، إبراهيم اللقانى : سعد زغلول ، على مظهر ، حفنى ناصف ، عبد السلام المويلحى ، إبراهيم المويلحى ، سليم النقاش ، أديب إسحق ، محمود سامى البارودى ، عبد الكريم سلمان ، عبد الله النديم وإبراهيم الهلباوى(١) .

---

(١) د . على الحديدى . المرجع السابق .

كان الأفغانى . . يحدث طلابه بشىء جديد كل الجدة . . حاول بعضهم أن يحول الجلسة إلى ندوة صوفية . . وأن يحول كل السخط الذى تموج به النفوس إلى انطواء صوفى ينعزل عن الناس يهدف إلى « الفناء فى الله » .

فيرد الأفغانى فى بساطة العالم والثورى معاً .. « أنا لا أفهم معنى لقولهم الفناء فى الله . . وإنما الفناء يكون فى خلق الله . . تعليمهم وتنبيههم إلى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم . . » (١) .

ويسعى الأفغانى إلى العمل المنظم . . إلى تكوين جماعة ذات نظام ودستور وأهداف تكسب الأنصار والأعوان ولم يجد أمامه سوى النموذج الماسونى . . فأنشأ محفلا تابعاً للشرق الفرنسى .

والحقيقة أن لجوء الأفغانى إلى النموذج الماسونى كان دليلا على ذكائه . . ودليلا أيضاً على موقفه الاجتماعى ومنهجه فى العمل .

فالأفغانى مثقف ليبرالى . يكره الظلم والطغيان ويسعى لإصلاح العالم الإسلامى ويؤمن بالتعليم وسيلة لذلك .

ولم يكن يدور بخلد الأفغانى أن يشعل ثورة من جموع الفلاحين . . أو جماهير الشعب . . لكنه أراد أن يجمع حوله قيادة واعية من المثقفين المستنيرين والتجار والأعيان وضباط الجيش . . كان هدفه الأمثل هو كسب توفيق إلى صف جماعته إذا ما أطيح باسماعيل وصل توفيق والجماعة إلى إلى السلطة ليحققوا أهدافهم . . نفس النموذج الكلاسيكى القديم . . الأمير العادل المصلح .

فإذا ما كسب توفيق إلى صفه . أو خيل إليه ذلك . . لم يعد هناك سوى التخلص من اسماعيل فيتفق مع تلميذه محمد عبده على اغتياله وهو يمر على كوبرى قصر النيل ويقول محمد عبده « لكننا لم ننفذ خطتنا فقد كانت تنقصنا اليد المنفذة » (٢) .

---

(١) عباس العقاد . المرجع السابق . ص ١٢٤ .

(٢) بلنت . المرجع السابق ص ٤٨٩ .

وفى هذا القول دلالات كثيرة .

وفى المحفل الماسونى يجمع الأفغانى ٣٠٠ شخص من الأدباء والصحفيين والأزهريين وضباط الجيش وعلية القوم وينظم الأفغانى محفله شعبا . . شعبة للمالية وأخرى للحقانية وثالثة للجهادية ورابعة للأشغال العامة وبهذا صار لكل وزارة شعبة تتوفر على إدارة شئونها وتلم بجوانب النشاط فيها وتصل بالوزير لتنلعه رغباتها وتوجهاتها » (١) .

وكان المحفل « يشغل بعلم الحكومة لايخشى اضطهادا ولايبالى بما يقوله القائلون . . والتحق به قسم عظيم من رجال البلاد من وطنيين وأجانب وفى جملتهم البرنس حليم باشا ابن ساكن الجنان محمد على والأمير عبد القادر الجزائرى المشهور» (٢) .

لكن الخطة كلها تفشل .

فإذا كان الأفغانى قد انضم للماسون « على أمل فى مناصرة أعضائه الشرقيين والأوربيين لدعوته العامة تصديقاً لماشاع عن مزاعم الماسون أنهم ينتصرون للحرية الإنسانية فقد تبين بطلان هذه المزاعم ونفض يديه من المحافل عامة . وجمع خلاصة أصدقائه كاتما أسماءهم فى سرية حمايه لهم من كيد وكلاء الدول وجواسيس الحكومة »(١) .

وهكذا تفشل خطة الأفغانى فى المحفل الماسونى .

وتفشل أيضا مع توفيق .. فتوفيق تلميذه وأمله يأمر بطرده بمجرد توليه السلطة .

باختصار تفشل محاولات المثقفين للإصلاح عن طريق إقناع الاعداء بأن ينهجوا نهجا إنسانيا .

---

(١) فجر الحياة النيابية المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) جرجى زيدان – تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى اليوم ، مطبعة المحروسة بمصر ١٨٨٩ ص ٢١٠ وما بعدها .

(٣) محمد عبده – المرجع السابق ص ١٣٥ راجع أيضا بلنت المرجع السابق ص ٤٩١ .

واختار الأفغانى لجماعته السرية .. اسم « مصر الفتاة » لكنها كانت أيضاً من المثقفين المعزولين عن الشعب .. ويذكر محمد عبده أن أغلب أعضائها كان من الشبان اليهود (١) .

ويحس النديم ابن الشعب البسيط بالغربة وسط هذه الجمعية فيحاول أن يناقشهم ، مطالبا بتغيير أسلوب العمل « فكان كلما نبه عاقلا أسكته . فإذا ألح عليه أنبه وبكته » .

فانسحب النديم من الجمعية ملتجئا إلى الفقراء .. « فلم أجد طريقاً لتنبيه الوجوه والأمراء ، إلا بعصبية أكونها من الفقراء » (٢) .

ويلتقى النديم بعرابى فهو أقرب إليه .

وتبقى جماعات المثقفين على عزلتها .. تحارب الطغيان بمحاولة إقناع الطغاة .. فإذا فكرت فى إزاحة واحد منهم عن الطريق«لم تجد اليد المنفذة» .

والحقيقة أن جماعة الأفغانى كانت بالرغم من الدور العظيم والفعال الذى لعبته فى تنبيه الأذهان وتنويرها .. خير دليل على إفلاس الاتجاهات المعتدلة وعجزها عن المضى قدما فى طريق الثورة . ويتضح ذلك بجلاء من موقف «محمد عبده» الذى كان ضد الثورة بل وكان يرى أن البلاد لم تنضج بعد للحكم الدستورى.

يقول محمد عبده « وإنما علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة وليس من المصلحة أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن تستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد فيفسد المال ويقضى إلى الهلكة » (٣)

---

(١) رشيد رضا تاريخ الأستاذ الأمام حـ١ ص ٧٥ .

(٢) د. على الحديدى ، المرجع السابق ص ٨٢ .

(٣) عباس العقاد ، المرجع السابق ص ١٠٦ .

بل أن محمد عبده يؤكد لبلنت فى صراحة « لقد انتقدت الحكومة بشدة لكننى كنت ضد الثورة — كنت أعتقد أنه يكفى جداً أن — نحصل على دستور خلال خمس سنوات .. وكنت أعارض أسلوب طرد رياض باشا و مظاهرة عابدين وكان سليمان أباظة والشريعى يويدانى ضد الثورة لكننا كنا جميعاً نطالب بالدستور (١).

بل أن محمد عبده لا يتورع عن أن يكتب قصيدة يهاجم فيها حركة الجيش يوم ٩ سبتمبر والتى أسفرت عن طرد رياض باشا .(٢)

قامت عصابات جند فى مدينتنا
لعزل خير رئيس كنت راجيه
قاموا عليه لأمر كان سيدهم
مخفية فى نفسه والله مبديه
كان الرئيس حليف العدل مقبه
وسيد القوم يهوى الجور يأتيه
جروا مدافعهم صفوا عساكرهم
نادوا بأجمعهم سل ماترجيه
فنال مانال والفضت جموعهم
أما النظام فقد دكت مبانيه

ولم يكن محمد عبده خائنا .. كل ما هناك أنه كان يكرر أسلوب جماعته فى عدم الإيمان بالشعب وفى التدرج والاعتدال ومحاولة كسب بعض الحكام .. وفى الوقت الذى كان فيه الجنود الفلاحين يتظاهرون فى عابدين ليطيحوا برياض باشا الطاغية .. كان محمد عبده يمنى نفسه بكسب رياض واقناعه بأن يساير الإصلاح .. وهذه حقيقة وليست مجرد استنتاج .

---

(٢) بلنت المرجع السابق ص ٤٩٣ .

(٣) محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الأمام ح ١ ص ١٥٢ .

فهو يكتب لأستاذه الأفغاني رسالة يقول فيها . « أن أنصار السوء وأعوان الشر قد سعوا بالوقيعة حتى أنهم غيروا قلب دولتلو ورياض باشا عليك وعلى تلاميذك الصادقين .. لكن لم يلبث أن وصلنا إليه وكشفت له أغمض من الحقيقة حتى ز ال مالبس المبطلون » .

لكن الثورة كانت تزحف فى طريقها . . وتنهار جماعة المثقفين المعزولة عن الجماهير ؛

ويكتب محمد عبده إلى الأفغاني ينعي إليه الجماعة بأسرها .

.. والحقيقة أن الضربة الحقيقية التي وجهت إلى الحركة الثورية في المدينة كانت أبعاد الأفغاني .. فالأفغاني بالرغم من اتجاهاته نحو كسب الأعيان وعدم تمرسة في العمل الجماهيري كان ثوريا ينقد حماسة واندفاعا .

وعندما نصب محمد عبده زعيما للجماعة من بعده قائلا وهو يغادر مصر « حسبكم محمد عبده . . حسبكم محمد عبده من وصى أمين . لم يكن يدرك .. أنه يسلم الحركه كلها إلى أيدى أشد المثقفين أعتدالا وعزوفا عن الثورة .. كان الأفغاني قد أسلم ارهابيات حركة البرجوازية المثقفة المعزولة عن الشعب إلى مصيرها المحتوم .

وعندما يحاول محمد عبده أن أن يكتب إلى أستاذه رسائل مليئة بالألغاز تعبر عن خوف كاتبها يعنفه الاستاذ قائلا : « تكتب لى ولا تمضى وتعقد الألغاز ؟ وما الكلاب كثرت أوقلت » (١) .

وما أن يصاب المد الثورى بالذبول حتى ينهار محمد عبده تماما .. معبراً بذلك عن روح الحركة التي نبع منها .. ويقترح على أستاذه « أن نهجر السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض لايعرفنا فيه أحد نختار من أهله عشرة غلمان من الأذكياء .. نربيهم على منهجنا . فإذا أتيح لكل

---

(١) محمد عبده المرجع السابق ص ١٤٢ .

منهم تربية عشرة آخرين لاتمضى بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيل الإصلاح » .

نفس الأسلوب . . كراهية السياسة . . عدم الثقة فى الشعب . والحل فى أيدى حفنة مختارة من الأذكياء .

ويرد الاستاذ على تلميذه المنهار « إنما أنت مثبط · نحن قد شرعنا فى العمل ولابد من المضى فيه مادمنا نرى منفذا » (١) ·

لقد كان الأفغانى من معدن آخر

ويتوج محمد عبده ضعفه وتردده · فإذا ما مات أستاذه لم يقل فيه كلمة رثاء واحدة .

ولم يكن محمد عبده وحده هو الذى تردد أواستسلم .

فسليم نقاش خان منذ البداية وباع نفسه لتوفيق والإنجليز .

وأديب اسحق خان الثورة هو أيضا والتجأ إلى حمى الإقطاع وقضى أيام الثورة العربية مختبئاً فى بيت الشوارى .

ومن لم يخن تردد وانهار تحت وطأة الأحداث .

. . لكن ذلك لايعنى على الإطلاق أن المدينة قد اتخذت جميعها نفس الموقف .

فجماعة مصر الفتاة كانت ذات تركيب خاص · . وإن كانت فى البداية هى التعبير الأولى على إرهاصات المدينة كلها .

ثم أن ضغط الأحداث والتهاب الثورة . . وشجاعة عرابى الفائقة وتراجع الخديوى وتخاذله . . وحماسة مجلس النواب ·· وقوة الجيش والتفافه حول قادته وجموع الفلاحين والأعيان التى ارتفعت أصواتها تأييداً للثورة .

---

(١) عباس العقاد ، المرجع السابق ص ١٠٦ ·

كل هذا كان كفيلا بشل تردد العناصر البرجوازية . . ودفعها إلى صفوف الثورة . . حتى محمد عبده نفسه أيد الثورة عندما قامت وشارك فيها.

كان المد الثورى جارفا بالدرجة الكافية لأن تلهب حماس الجميع ماعدا الأعداء وتتشكل جمعيات عديدة بينها جمعية شبان الإسكندرية التى يتحدث عنها سليم النقاش قائلا . . « أن جمعية شبان الإسكندرية التى أسست عقب التظاهر العسكرى للنظر فى منافع الوطن العمومية قد أقترعت على تعيين وفد منها يتوجه إلى المحروسة لتقديم الشكر للحضرة الخديوية على تشكيل وزارة محمود سامى فأصابت القرعة إثنى عشر شابا من أعضاءها» وبعد أن يورد أسماء الوفد يقول « وجميعهم من أبناء ووجهاء الثغر وأعيانه فتوجهوا للعاصمة وصحبهم النديم وقابلوا الخديوى وسلطان باشا والبارودى وعرابى ثم عادوا بعد أن أهدوا النديم ساعة وسلسلة ذهبا» (١)

ومع انتصار الجيش فى ٩ سبتمبر أمتلأت القاهرة بالأعلام والسرادقات والاحتفالات.

كان التجار يوزعون الشربات والملبس فى الشوارع.

والأعيان يقيمون الاحتفالات.

والمثقفون يدبجون الخطب والقصائد مدحا فى عرابى .

مئات القصائد والأناشيد .. تقول إحداها (٢) .

وقولوا ياعرابى مر بأمر   تراه فأنت ذو الأمر المجاب

ودم لوزاره لسواك تأبى   وأن وصلت اليك بلا طلاب

وقولوا ياعرابى دم رئيسا   لحرب النصر محفوظ الجناب

---

(١) مصر للمصريين . جـ ٤ — ص ٢٣٢

(٢) مصر للمصريين . جـ — ص١٢٥ .

٤

* « إن السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليونا من بنى آدم . . أفلا يلعب جمال الدين بثلاثين حبة من الكهرمان » .

جمال الدين الأفغانى

عندما طلب إليه رئيس الديوان أن يكف عن العبث بمسبحته فى حضرة السلطان عبد الحميد .

* « لقد بدأت بظليل ظل الحضرة السنية الملوكانية بمباشرة أمور الخديوية عالما علم اليقين أن سلامة الخديوية المصرية تحصل بالثبات على قـــدم العبودية والتابعيه للسلطة السنية .

رد توفيق على فرمان السلطان بتوليته خديويا .

الخليفة التركى . . والمصريون

عندما وصل نابليون إلى مصر أصدر بيانا غريبا قال فيه « أن الفرنسيس هم أيضامسلمون مخلصون . . وإثبات ذلك أنهم نزلوا رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام . ومع ذلك فإن الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى .. وأعداء أعد ئه أدام الله ملكه » .

وعندما احتل نابليون القاهرة دعا المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة « أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال .. أدام الله إجلال السلطان العثمانى أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى .. لعن الله المماليك » .

ولم يكن نابليون ساذجا عندما تمسح بالإسلام .. فهو يعلم أن الإسلام هو الحقيقة الكبرى فى حياة المصريين وأنه لو عومل من المصريين على أنه « كافر » لأصبح من المستحيل عليه الاستقرار فى مصر .

والحقيقة أن الإسلام يمثل فى مصر بالذات شيئاً بالغ الأثر فى حياة الجماهير ويؤكد ادوارد ديسى أنه قد أحس من مخالطته للمصريين « أن الإيمان بالله وبرسوله محمد يمثل مكانا هاما وغير عادى فى حياة المصرى .. مكان هام جدا بحيث أن تجاهله يعتبر تجاهلا لأحد العناصر الحاسمة فى المسألة المصرية » (١)

ويمضى ديسى مؤكدا « ما أن يشعر الفلاح المصرى أن الإسلام مهدد فى أى مكان من الأرض حتى يستنفر للدفاع عنه . . والذى أود أن أؤكد أن مصر تختلف فى حماسها للإسلام وتمسكها به عن غيرها من البلدان » .

وإذا كان الإسلام هو الحقيقة الكبرى لدى المصريين ، فإن « الخلافة » التركية كانت شيئا آخر .

---

(١) ادوارد ديسى. مصر المستقبل . لندن هانيمان طبعة ١٩٠٧ ص ١٢٩ .

« فالخليفة » . . الباب العالى الشاهانى خاقان البرين والبحرين . . أمام المسلمين وحامى حمى الإسلام . . لم يكن سوى طاغية يستخدم « الخلافة » ستاراً للنهب والاستبداد الذى مارسه العثمانيون على أوسع نطاق فى أبشع صوره

والحقيقة أن العثمانيين استفادوا إنما استفادة من روح الإسلام السمحة ومن دعوته إلى الإخاء بين كل المسلمين . . ومن اعتبار كل بلاد المسلمين « دارا » واحدة هى « دار الإسلام » تجمعها وحدة اللغة ووحدة الشعائر والقيم والمثل .

والحقيقة أن المسلم لم يكن ليشعر بالغربة فى أى مكان يحل فيه من دار الإسلام. واعتاد المسلمون على التنقل بحرية ويسر عبر المنطقة كلها ويروى ابن بطوطة أنه قابل فى الإسكندرية رجلا استحلفه أن اخوته المتناثرين فى كلكتا وبغداد وفارس وأن يبلغهم سلامه .

وعبر المنطقة كلها كانت التيارات تمتزج وتختلط بسرعة وقوة . . جنود الإسلام .. والولاه ورسل البريد والشعراء والرحالة يجوبون كل مكان مؤكدين وحدة الرابطة الإسلامية .

والجوارى القادمات من كل مكان إلى كل مكان . . تركيات وشاميات وحبشيات ومن كل جنس يدخلن كل بيت ويعيش مع كل أسرة ناقلات الفكر والحضارة والتقاليد .

خلف هذا كله تستر القهر الشاهانى وتسلط بحد السيف فى أول الأمر ، ثم بالخلافة الشاهانية بعد ذلك ، وأحكم قبضته حتى فى أكثر حالات ضعفه واضمحلاله مستنداً إلى فكرة الخلافة مدعيا أن كل حركة قومية أو وطنية هى مروق على الإسلام وخروج عن الدين .

ولعل أعظم نجاح حققته الخلافة العثمانية فى هذا الصدد هو قضاؤها على الحركة الوهابية مستعينة بمشاعر المسلمين « الذين تمكنت من إقناعهم أن الحركة الوهابية حركة زنديقية فيها مروق عن الإسلام » (١)

(١) د . طه شرف — الأحداث العربية فى تاريخها الحديث سلسلة اخترنا لك ص ١٩ .

وينعكس ذلك كله فى مصر

فيتخذ أكثر الصراع طابعا دينيا

ويتأكد ذلك الطابع بقيادة مشايخ الأزهر له .

وينسى المصريون (مصر) فى غمار خضوعهم للخلافة

ويردد طلاب الأزهر فى تكرار ودود إحساس بالتذمر .. كلمات قالها جلال الدين السيوطى فى كتاب « حسن المحاضرة » تقول :

« إن المصريين شعب كتبت عليه الذلة والمسكنة والخضوع لغيره فى مختلف العصور »

بل أن مؤرخا وطنيا أصيلا كالجبرتى كانت الأمور تختلط أمام عينيه . فثورات أبناء الشعب .. هى « جموع من العوام والذعر والجعيدية » .. بينما كان يسمى المماليك « الأمراء المصرلية أو المصريين »

ولعل حدة مقاومة المصريين للحملة الفرنسية .. وصمودهم الباسل أمام حملة رشيد الإنجليزية يؤكدان عمق الإحساس الدينى وقدرته على أن يكون سلاحا فعالا .

فالفرنسيون هم أولا وقبل شىء كفار .. وينتقى لهم الجبرتى أسماء مثل « برطلمين الكافر » واللعين كفرلى والتعيس بونابرتة والملعون ديبوى .. وهم جميعا « الملاعين الكفار » (١) .

على أن ذلك كله لم يكن ليدفع بالمصريين بعيداً عن ميدان النضال ضد العثمانيين .. ففى نفس اللحظة التى كانوا يهتفون فيها من أعماقهم وبإخلاص شديد « نصر الله السلطان حامى حمى الإسلام » . . كانوا يهتفون أيضا ومن أعماقهم وبنفس الإخلاص « يارب يامتجلى اهزم العثملى » .

ثمة فارق إذن بين الخلافة .. كتراث وفكر وكرمز للإسلام ومجده . وبين العثمانيين وولاتهم وظلمهم .

---

(١) راجع مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس .. الجبرتى .

نقاوم العثمانيين ونحاربهم .. أما الخلافة فلا . فهى شىء آخر شىء مستقل عن العثمانيين وعن تركيا .. وعن الولاه .. بل وعن الخليفة ذاته الذى قد يكون ظالما « وقد يسير فى الناس سيره الجور والظلم وهنا يكون للمسلمين حق عزله وخلعه » .

كما قال عمر مكرم .. لخورشيد باشا .

والتاريخ المصرى ملىء بأحداث النضال ضد العثمانيين ولنحاول أن تقتبس من الجبرتى واحدة منها هى قصة حجاج الخضرى « الذى جمع من أهل حية عصابة قرية تأتمر بأمره وتخضع لتوجيهات السيد عمر مكرم وأخذوا يفتكون بجند العثمانيين وقد أقام حجاج حائطا وبوابة على مدخل حى الرميلة لأحكام وسائل الدفاع عنه .. وذات يوم ترك الجند العثمانيون القلعة ليهاجموا حجاج .. لكنه أوقعهم فى كمين واستولى على قافلة الجمال التى تحمل الذخيرة وعددها ستون جملا .. وأبيد بعض العثمانيين وأخذ الآخرون أسرى »(١)

.. ومضى حجاج الخضرى على رأس المقاومة الشعبية .. « وعندما جاء فرمان السلطان لإقامة محمد على واليا على مصر .. دخل حامل أمر السلطان إلى القاهرة فى حماية حجاج ورجاله . . وبينما كانت قنابل درويش باشا تتساقط من القلعة . .كان مندوب الخليفة العثمانى يدخل القاهرة فى حماية رجال حجاج يتقدمهم حجاح نفسه راكبا حصانه .. شاهراً سيفه » (٢)

وهكذا تفرض الوحدة الإسلامية أشكالا للنضال تتبع من فكرة الخلافة وتسير فى إطارها .

وحتى الحركات التحررية الساعية للتقدم والمقاومة للظلم والقهر العثمانى كانت تحتمى هى الأخرى خلف هذا الإطار .

ومن بين هده الجماعات حزب الأحرار الذى ضم عشرات المجاهدين

---

(١) راجع محمود الشروقاوى - دراسات فى تاريخ الجبرتى .

(٢) محمود الشرقاوى - الجبرتى وكفاح الشعب كتاب الهلال أغسطس ١٩٦٦ ص ١٤٥

من مختلف البلدان الإسلامية والذى كان ينادى بعزل السلطان عبد الحميد ويسعى لإقامة وطن إسلامى متحرر .

وعندما يزور بلنت جدة يتعرف هناك « عن طريق يوسف أفندى القدسى بمجموعة من المسلمين منهم الشيخ حسن جوهار وهو عالم صومالى مثقف والشيخ عبد الرحمن محمود من حيدر أباد بالهند ، والشيخ مسعد من مكة وبعض أفراد عائلة البسام من نجد وشيخ بدوى واسع الثقافة من جنوب مراكش وكانوا جميعا أعضاء فى حزب الأحرار الذى اتخذ من مكة مركزاً لنشاطه المتشعب الأطراف » .

ولعل مثل هذا التجمع الذى يشمل عناصر متحررة من كافة أرجاء العالم الإسلامى هو الذى أوحى للشيخ عبد الرحمن الكواكبى بفكرة كتابه « أم القرى » الذى يتخيل فيه مؤتمراً يضم ممثلين للدول والجماعات الإسلامية فى مختلف أنحاء معالم ليبحثوا عن علاج لأوضاع الأمة الإسلامية فهناك بين الحاضرين . السيد « الفراتى » والفاضل « الشامى » والعلامة « المصرى » والمحدث « اليمنى » والحافظ « البصرى » والعالم « النجدى » والحكيم « التونسى » والمرشد « الفارسى » والخطيب « الفازانى » والفقيه « الافغانى » والرياضى « الكردى » والعارف « التاتارى » وهكذا .

ويسجل ادوارد ديسى هذه الملاحظة مؤكدا « أن الرابطة » التى تجمع بين المسلم الذى يعيش فى أدغال الملايو وبين السودانى أو التونسى أو الجزائرى وبين الفلاح المصرى أقوى بكثير من الرابطة التى تجمع بين هذا الفلاح المسلم وبين جاره فى نفس القرية وفى نفس الحقل . . إذا ما كان هذا الجار قبطيا » (١) .

---

(١) ديسى .. المرجع السابق ص ١٤٤ .

ولقد وجدت هذه الحركة الإسلامية الجامعة صدى فى مصر . . ولعل الأفغانى لم يجد صعوبة فى إذكاء فكرة الجامعة الإسلامية فلقد كانت جذور هذة الفكرة تمتد عميقة فى أرض مصر .

وكان لمصر صلاتها بحزب الأحرار فى مكة .

ويروى بلنت قصة شيخ إسمه محمد خليل المجرسى قال له أنه « من مجموعة الشيخ محمد عبده .. وأنهم على علاقة بحزب الأحرار فى مكة وأن هدف هذا الحزب طرد السلطان عبد الحميد وإقامة خليفة جديد من بعده»(١)

صحيح أن فكرة الخلافة قد اهتزت بعض الشىء .

فالمدارس العصرية التى مارست نشاطا واسعا فى بعض أنحاء البلاد العربية لعبت دوراً فى خلق جيل من المثقفين العصريين يرفضون الخضوع لفكرة الخلافة .

وعندما سافرت البعثات المصرية أيام محمد على إلى فرنسا .. عاد المثقفون المصريون ليتحدثوا عن « الأمة المصرية » وعن حقوقها .. وليرفعوا فى حذر راية التمرد على الخلافة (٢) .

فرفاعة الطهطاوى يؤكد فى كتابه « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوفيق بنى اسماعيل » أن « مصر أم الحضارات ولم تسبقها فى ميدان المدنية ولا فى حرفة تقنين القوانين وتشريع الأحكام دوله .. ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة عاقلة ولا أنكرت الاستفادة بنور نبراسها مملكة ولا دولة » .

لكن أخطر ما قاله رفاعه هو تفضيله للفرنسيين على تركيا مهد الخلافة.. فهو يؤكد « أن الفرنساوية أقرب إلى العرب من الترك فهم يحرصون على « الشرط » والحرية ويحبون الافتخار ويوفون بعهودهم » .

---

(١) بلنت — المرجع السابق ص ١٦١

(٢) د . طه شرف . المرجع السابق ص ٢٢ .

لكن فكره الخلافة كانت أقوى من كل ذلك

وتأتى أحداث الثورة العرابية لتجد الخليفة وهو مايزال « باب الإسلام وحامى حماه » .

كانت الخلافة لاتزال فى أذهان المصريين رمزاً لمجد الإسلام . . وظلت كذلك لمدة طويلة .. ويروى ملنر فى دهشة قصة « الفرمان » الذى كان يتعين على عباس الثانى أن يحصل عليه .. لكى يصبح خديويا .. فيقول .

كان لابد من فرمان صادر من السلطان حتى تصبح سلطته شرعية « كان الرجل قد أصبح خديويا بالفعل وفى الواقع .. لكن الفرمان كان ضروريا فى نظر الجمهور .. وإلى أن يأتى الفرمان كان الخديوى مجرد نصف خديوى فقط .. ولمدة أسابيع طويلة . . ظلت القاهرة فى توتر شديد . . لقد أرسل الفرمان .. لقد أبحرت السفينة .. لالم تبحر بعد .. لقد تلقت أمراً بالإبحار .

لقد صدر الفرمان فعلا . . لكن السلطان لاحظ أن الخط المكتوب به الفرمان ردىء فأمر بإعادة كتابته من جديد . . وأخيرا وصلت الوثيقة التى طال انتظارها .. لكن المهزلة لم تنته بعد .. فالفرمان قد صدر . . ومهره السلطان بتوقيعه ..ووصل إلى القاهرة فعلا . لكنه موجود فى حقيبه ..وحامل الحقيبة ضابط عالى الرتبة فى الجيش العثمانى . . لكنه ما أن يصل القاهرة .. حتى يبدى اعتزازه الشديد .. فهو رجل عسكرى .. تلقى أمرا بالرحيل .. وحان موعد رحيله لكن الفرمان لم يتم إعداده بعد .. ولأنه رجل عسكرى فقد رحل فى الموعد المحدد .. وهو آسف جدا فقد حضر بغير فرمان . وأخيرا وبعد ضغط فتح الضابط حقيبته وخرجت الورقة الشاهانية وقرأت فى قصر عابدين بين طلقات المدافع وتهليل المصريين » (١) .

ولقد تعمدت أن أورد الرواية كلها . . لأنها تعبر أبلغ تعبير عن حقيقة المركز الأدبى والمادى والفكرى « للخلافة » .

---

(١) ملنر انجلترا فى مصر المرجع السابق ص ٧ ، ٨ ، ٩

وكان هذا المركز يمثل تناقضا حقيقيا يحير الثورة العرابية .. ويحير عرابى نفسه .

وكان التناقض واضحا تماما .

كان قدرى بك أحد أعضاء الوفد التركى يهجو عرابى علنا فى قصائد طويلة .. تقول إحداها .

يبكيك من يدريك يا ثغر الفنا
وأقل حزن للبكاء لزام
أحرقت أعرابى تغر بلادنا
والله قد حاطت بك الآثام
فانظر جزاء الله كيف يأتى عاجلا
يابن الزنا ماهذه الاجرام (١)

وفى الوقت الذى كان فتح الله حمزه يندد فيه بعرابى فى مجلة «الاعتدال» معددا مظاهر خروجه على السلطان قائلا ه

أن درويش باشا أمره بقبول اللائحة الإنجليزية فرفض وأمره بإيقاف إصلاح الطوابى فرفض

وأمره بعدم الرد على إطلاق النار فرفض

وأمره بالحضور إلى الإسكندرية المشافهة فرفض

وأمره بعدم إخلاء طابية الدخيلة والعجمى والمكس فرفض

.. ويمضى فتح الله حمزه قائلا أن السلطان أرسل برقية تأمر بإيقاف إصلاح الطوابى .. لكن عرابى صرح بأن ذلك مرهون بإقلاع الأساطيل الأجنبية وخروجها من ميناء الإسكندرية

ويورد فتح الله حمزة فى مقاله..تصريحا نشرته الطائف نقلا عن مكاتب

---

(١) مصر للمصريين . ص ٥ ، ص ٢٤٢ .

جريدة استاندرد يقول « أن عرابى يعتبر العساكر العثمانية إذا حضرت إلى هذا الطرف .. كعساكر أجنبية » (١) .

فى ظل كل هذا التوتر .. والخلاف .. والتمرد .. بل والتهديد بالمقاومة كتب مسيو دومريكر قنصل النمسا بالاسكندرية يصف ماشاهده بنفسه أثناء الضرب قائلا « بدأت طلقات المدافع فكنا نرى جماعات من العساكر المسلمين بالعصى والسيوف تطوف بالشوارع والطرقات صارخة « النصر للسلطان وعرابى » (٢) .

فقيم النصر للسلطان .

وهنا يكمن جوهر التناقض القديم .. فالفلاحون والجنود عندما يهتفون النصر للسلطان .. كانوا يقصدون النصر للإسلام .. لكنها الخدعة الكبرى .. الخلافة .

والحقيقة أن قصة « الخلافة » هذه قد لعبت دوراً كبيراً جدا فى الثورة العرابية وأن عرابى كان بحاجة كما سنرى فيما بعد إلى مهارة سياسية فائقة ليناور حول موضوع الخلافة وليحاول أن يكسب لنفسه بعض الحرية فى الحركة فى مواجهة السلطان الماكر الذى يحاول باستمرار أن يلعب نفس اللعبة القديمة أن يكسب بالغش والخداع وضرب القوى المتأخرة بعضها البعض .

كان موضوع « الخلافة » بالغ الأثر فى مصير الثورة .

كان بالغ الأثر ايجابا عندما أحس الناس أن خليفة المسلمين يؤيد عرابى وعندما تواترت أنباء عن رسائل سرية متبادلة ولقاءات مدبرة بأحكام فعرابى يركب مصادفة نفس القطار الذى يركب فيه أحمد راتب بك مندوب السلطان ويدور الهمس بينهما مدة طويلة .

وكان بالغ الأثر إيجابا أيضا .. عندما منح السلطان عرابى رتبة الباشاوية فانزعج مستركارترايت انزعاجا شديداً ووجه رسالة سريعة إلى لورد غرانفيل

---

(١) مصر للمصريين . ص ٥ ، ص ١٩٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٤ .

يقول فيها .. « ومما زاد الطين بل ذلك النيشان الذى أنعم به السلطان على عرابى فى هذا الوقت ، فإنه رفع مقامه فى أعين الجميع وأعلى كلمته وشدد عزائم الجهادية وجعل عرابى هو المشار إليه والمعنى به والمتحدث عنه فإذا ظهر فى محفل عمومى أعدت له أسباب الاحتفال الفائق والاستقبال الشائق وإذا مر بشوارع المدينة سار ركابه من دون سائر الوزراء جماعة من الخيالة مثل الذين يسيرون فى ركاب الخديو » (١) .

وكان بالغ الأثر سلبا .. بل بالغا حد التدمير القاتل .. عندما وصلت نسخ من مجلة « الجوائب » التى تصدر بالاستانة .. وهى تحمل فى صدرها كلمة « بيانامة » ثم بيان طويل .. تقول مقدمته :

« بإرادة سيدنا ومولانا السلطان المعظم أمير المؤمنين خليفتنا الأعظم إشعارا لجميع المسلمين بأن الأفعال التى أجراها عرابى وأعوانه ورفقاؤه فى مصر مخالفة لإرادة الدولة العلية السلطانية ومغايرة لصالح المسلمين وبناءعلى ذلك تقرر أن عرابى وأعوانه عصاة بغاة وبهذه الصفة تجرى معاملتهم) (٢) .

وكانت الضربة القاضية من الخليفة الماكر فى غباء والمناورة فى بلاهة .

---

(١) سليم نقاش جـ ٥ ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) سليم نقاش جـ ٥ ص ٢٠١ .

٥

إذا كنت تاجراً ولا تريد الإفلاس فلا يسعك أن تسير بتجارتك وفق تعاليم المسيحية الأولى .. وليست إنجلترا وحدها هي التي تعمل بهذا المبدأ .

أدوارد ديسى
مصر المستقبل

الأجانب والقروض .. والتدخل

كان سعيد باشا رجلا خفيف الظل . .

وذات يوم زاره أحد الماليين الأوربيين .. وفجأة صاح سعيد بخادمه « أغلق الشباك بسرعة فلو أصيب هذا السيد ببرد فسوف يطالبني بتعويض لا يقل عن عشرة آلاف فرنك »

وإذا كان سعيد مغرما بالنكت . . فإن ما قاله لم يكن نكتة بل حقيقة واقعة ، فمنذ ذلك الحين ظلت خزائن الخديو نهبا لطلبات غريبة تثير الضحك والاشمئزاز — معا . .

« فإذا سرق شخص بسبب إهماله هو فإن الحكومة هي المخطئة بسبب عجزها عن المحافظة على الأمن والنظام ثم يطالب بالتعويض . . وإذا أبحر شخص بقاربه وتسبب بإهماله في جنوحه فإن الحكومة هي المخطئة لأنها تركت رمالا على الشاطىء في تلك الجهة . . ثم يطالب بالتعويض . . وفي أحد القضايا نجح أحد النبلاء النمساويين واسمه كاستيلا بمساعدة حكومته في انتزاع مبلغ ٧٠٠ر٠٠٠ فرنك على أساس أن — ٢٨ صندوقا من شرانق الحرير قد تلفت بسبب تعرضها للشمس عند تأخر سفر القطار من السويس إلى القاهرة »(١) .

« وذات يوم رفع شخص — كان في وقت واحد تاجراً يونانيا ، وحماية فرنسية — وقنصلا عاماً لبلجيكا — قضية على الوالي مطالبا بتعويض قدره ٣ ملايين جنيه لأن سعيدا رفض أن يعترف بكلمة شفوية يزعم أن محمد علي أعطاها له منذ أكثر من عشر سنوات تمنحه حق نقل البضائع في منطقة الترانسيت إلى خليج السويس .. وبدلا من التقاضي والإلحاح دفع سعيد ٣ ملايين فرنك(٢) .

---

(١) بنوك وباشوات . المرجع السابق ص ٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠ .

والحقيقة أن قصة الأجانب فى مصر قد مرت بأطوار غريبة .

فعندما جاء نابليون إلى مصر لم يكن بها سوى أقل من مائة أجنبى يعيشون فى أحياء مغلقة ويعاملون معاملة قاسية وقد فرض عليهم المماليك أن يلبسوا ملابس معينة وألا يخرج أحدهم من حارته إلا راكبا حمارا . . لكن الحملة الفرنسية غيرت النظرة للأجانب . . ولفتت أنظارهم إلى ثراء مصر . . وجاء محمد على وتدفق الأجانب على مصر . .

وفى ١٨٣٧ كان فى الإسكندرية ٧٠ شركة أجنبية أغلبها ليونانيين وفرنسيين وانجليز ونمساويين وطليان . .

وعندما تولى عباس الحكم كان يكره الأجانب . . فغادر معظمهم البلاد .

ثم جاء سعيد الخفيف الظل . . المحب للأجانب . . الذى يتكلم الفرنسية باستمرار والذى يسهل لأى إنسان أن يستغفله .. وتدفقت سيول الأجانب إلى مصر كما لو كانت كاليفورنيا جديدة .

وفى الفترة من ١٨٥٧ — ١٨٦١ دخل البلاد ١٢٠٫٠٠٠ أجنبى — بمعدل ٣٠٫٠٠٠ كل عام .

ثم جاء رواج القطن . . فأصبح إعصار الهجرة الأوربية إلى مصر جارفا وهكذا يتدفق على مصر فى عام ١٨٦٢ ٣٢٫٠٠٠ أجنبى
ثم فى ١٨٦٣ ٣٤٫٠٠٠ أجنبى
وفى ١٨٦٤ ٥٦٫٠٠٠ أجنبى
وفى ١٨٦٥ ٨٠٫٠٠٠ أجنبى(١)

أنها أعداد كبيرة بغير شك لكن الكارثة الحقيقية لم تكن « الكم » وإنما فى النوع . .

« فإذا كان الأعضاء « الصالحون » من المجتمع الأوربى فى مصر ذوى

(١) المرجع السابق ص ٨٠ .

أصل مشكوك فيه فإن جمهرة المهاجرين كانوا من حثالة البحر الأبيض المتوسط . . فالموانى المزدحمة وقرى مالطة والشرق الأدنى قد ارسلت الفائضين من الفقراء والعاطلين والساقطين إلى أرض المال الوفير . . كل هولاء اندفعوا إلى الإسكندرية حيث كانوا يلبون احتياجات وملذات وشهوات الروج يديرون المحلات والحانات فى الحوارى والمطاعم وكازينوهات القمار والفنادق وبيوت الدعارة »(١)

وثمة وصف أخر لهؤلاء الأجانب يورده ملنر فى كتابة انجلترا فى مصر .

« لقد تجمعت فى مصر حثالات أوربا وحوض البحر الأبيض . . لقد كانوا طاعونا شديد الضراوة أصاب مصر . . وفى نهايات عصر اسماعيل أصبحوا شيئًا رهيباً . . كانوا مرابين ونصابين ويشتغلون بالرهونات وكانوا قادرين فى معظم الأحيان على مساندة قناصلهم لهم فى اقتناص ثراوت وأملاك الزارع المصرى المسكين . . وبعد كل هذا كان طبيعياً أن ترتفع فى مصر صيحة مصر للمصريين » .

نعم (مصر للمصريين) فهى لم تعد لهم ولا للسلطان ولا حتى للأسرة المالكة . . وإنما لهذه الحثالات التى سيطرت على كل شىء على الوظائف . . والأرض والمال . .

كانت مصر ضيعة حقيقة لأمثال باسكوالى وديرفيو . .

« ديرفيو » لعل أحدا لم يسمع بهذا الاسم . .

ومع ذلك فإن ديرفيو هذا قد لعب دورا فى تاريخ بلادنا ربما أكثر من دور اسماعيل وسعيد . .

ديرفيو كان يوماً ما المالك الفعلى والممول الفعلى للمال والاقتصاد والسلطة فى مصر . .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٢ .

ويطوى النسيان هذا الاسم . . لا أحد يذكرة على الإطلاق .. ثم فجأة يعثر لاندز على مجموعة رسائل . . تبادلها ديرفو مع مدير أحد البنوك فى باريس .

وتصبح رسائل ديرفيو واندريه مصدراً هائلا لتاريخ هذه الفترة . وتصبح مادة لكتاب شيق هو . . بنوك وباشوات . .

ديرفيو بدأ حياته فى مصر مديراً فاشلا لفرع شركة الميساجريه البحرية ثم مديراً فاشلامرة أخرى للشركة المجيدية للملاحة . .

لكن ديرفيو كان بالرغم من فشله يمتلك ميزة أساسية أنه تزوج بنت كوينج . . وكوينج هذا كان معلماً لسعيد . . ثم عمل سكرتيراً لسكرتيره الخاص .

وبهذه الميزة . . صهر سكرتير السكرتير الخاص أصبح ديرفيو أكبر شخصية ذات نفوذ فى مصر .

ولنسر مع الرسائل بسرعة .

« بالإضافة إلى إدارة الشركة المجيدة فإن لى شئوناً تجارية وصناعية أخرى تدر أرباحاً طيبة » سنة ١٨٥٩ .

« لقد استقلت من الشركة المجيدة وأسست شركة ادوارد ديرفيو وشركاه برأسمال ٤٠٠ر٠٠٠ فرنك »

ديسبر ١٨٦٠

« بقليل من النشاط أمكن لرأس المال أن يزيد إلى ١ر٠٠٠ر٠٠٠ فرنك »

يناير ١٨٦٢

ثم ارتفع رأس المال إلى ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ فرنك بعد عدة أشهر .

وفى هذه الأثناء كان ديرفيو يحقق ٣٠٪ أرباحاً .. أى أن ربحه فى عام واحد بلغ مليون فرنك .

ويأتى اسماعيل وكان صديقاً لديرفيو . .

ويكتب هذا إلى اندريه قائلا : « ما تزال علاقاتى باسماعيل ممتازة بل خاصة . . صحيح أنها لم تأت بعد بنتائج مادية إلا أن هذا سيأتى فى حينه . . إننى متأكد من أن أى عملية مالية كبيرة لن تم بدون مشاركتى » .

لكن النتائج المادية تأتى سريعا

فيطلب اسماعيل إلى ديرفيو أن يزيد من راسماله إلى ١٠ ملايين فرنك وساهم معه فى الزيادة بمبلغ مليونى فرنك . .

ويكتب ديرفيو . . « يجب أن تدرك ياعزيزى أندريه وأنت تفهم الشرق مدى الإمكانيات الهائلة التى ستتفتح من مشاركة جلالته . . إن هذا يضعنى فى مركز خاص أحافظ به على شخصيتى وأكون ثروة فى خلال سنوات قلائل . . »

. . هكذا ارتفع ديرفيو . . إلى الشريك ذو النصيب الأكبر — للخديو — لكن ما هى مهمة ديرفيو ؟ . .

لاشىء أكثر من أن يقرض . .

اقرض سعيد ثم أقرضة فإذا ما اتسعت العملية اقترض له من أوروبا . . ومن العمولات والخصم . . والفوائد . . كون ديرفيو ثروة طائلة . . وإذا كان سعيد قد مات تاركاً ديناً قدره ٠٠٠ر٣٠٠ر٣ جنيه . . فإن اسماعيل بفضل تسهيلات ديرفيو وخدماته . . قد ارتفعت ديونه إلى ٠٠٠ر٠٠٠ر٩١ مليون وأفلس اسماعيل وأفلست مصر . . لكن ديرفيو ازداد ثراء وبنى بيتاً فخماً فى باريس ٠٠ وأسس هناك بنكاً ضخماً .

مرة أخرى من أين أتته كل هذه الثروة . . ولنقدم أمثلة

فى ١٨٦٢ استدان سعيد ٥ر٢ مليون جنيه لكنه كتب كمبيالة بمبلغ ٠٠٠ر٢٦٠ر٣ جنيه أى بزيادة ٠٠٠ر٧٦٠ جنيه « ٢٤٪ من أصل الدين » أخذها ديرفيو عمولة وسمسرة — ولنأخذ نموذجاً آخر . .

فى ١٨٦٥ استدان اسماعيل من بنك الأنجلو اجيبسيان ٠٠٠ر٦٤٠ر٢

جنيه ودفع كمبيالة بـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ جنيه (أى بزيادة ١٢٪ من أصل الدين كعمولة وسمسرة) لكن البنك اشترط أن يشترى اسماعيل بنصف هذا المبلغ أدوات سكك حديدية وأن يكون لهم سمسرة ٥٪ وبهذا ارتفع مجموع السمسرة إلى ٠٠٠ر١٨٦ جنيه(١)

ثم هناك الفوائد التى بلغت فى مدى ثمانى سنوات ٩٩٨ر١٥٤ر١ جنيه .

وهكذا أفلس إسماعيل ..

وبدأت مأساة الرقابة الثنائية .. والتدخل الأجنبى السافر والصراع الدامى على اقتناص السلطة ..

بدأت مصر وكأنها غنيمة لكل أوربى ينال منها ما يشاء بقدر شراهته وجشعه ..

وإذا كان الأجانب يملكون المال والأرض والوظائف .. فهم قوة حقيقية بلغت إلى حد إذلال الخديو ومطاردته .. بل وبلغت إلى حد تسيير مظاهرة أجنبيـــة فى الإسكندرية تهتف .. وبأعلى صوتها « يسقط إسماعيل » .

ومع الامتداد الذى لا حدود له للنفوذ الأجنبى .. كانت القوى الوطنية تزداد حقداً واشتعالا . .

كان التجار يفلسون ويعلنون من وطأة الضرائب بينما الأجانب يزدادون ـــ ثراء .. ويعفون من الضرائب .

والملاك الكبار والصغار على السواء مدينون للأجانب وأراضيهم المرتهنة تفلت وبسرعة من أيديهم .

والمثقفون المصريون لا مكان لهم فى سلم الوظائف والذى يجد مكاناً لا يقبض مرتبه ..

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع : عزيز خانكى بك ، أحاديث جديدة، المطبعة العصرية ص ٦٠ .

وضباط الجيش يسرحون والذى يبقى لا يقبض أيضاً مرتبه . .

ويغلى الحقد . . ويتبلور شعار « مصر للمصريين » ليجمع كل هذه القوى مطالبة لنفسها — كل فى حدود مصالحه — بمكان على هذه الأرض.. أرض مصر .

« وكان طبيعياً كما يقول ملنر « ان تتجه الحركة العرابية بكل قوتها من معاداة تصرفات الرقابة الثنائية . . إلى معاداة النفوذ الأوربى بل إلى معاداة أى تدخل أوربى . .

الجزء الثاني

الثورة ..

والثورة المضادة

* عرابى .. جندى فلاح أزهرى
* حزبان .. واحد للأعيان وآخر للفلاحين
* برنامجان ..
* بين نيران ثلاثة ..
* الحرب بين الصمود والحياة

وبعد

لقد كان الجزء الأول بكل ما فيه من استطراد ضرورة لازمة .. فى اعتقادى لكى نستطيع رؤية الأحداث رؤية صحيحة .. ولكى نقيم المواقع تقييماً علمياً خالياً من المؤثرات التى حشدها المستعمرون وأعوانهم .. وكثيرون غيرهم من المثقفين والأعيان الذين ضعفوا أمام المستعمر وتعاونوا معه عقب الاحتلال مباشرة ولم يجدوا ستاراً لضعفهم سوى تلطيخ أمجاد ثورة الفلاحين المصريين بزعامة عرابى ..

إن الجزء الأول كان ضرورة لا بد منها لتوضيح الأرضية التى تحركت عليها الشخصيات والطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة وبدون الوضوح التام والفهم الكامل لهذه الأرضية سيصبح الحديث عن الثورة العرابية .. أو أية اجتماعى حدث هام ضرباً من الاستنتاج الشخصى البحث والتقييم الغير موضوعى والغير الجاد ..

والآن وبعد الدراسة السابقة نستطيع أن ننتقل بجرأة إلى الثورة ذاتها .. أحداثها ومواقف القوى الاجتماعية المختلفة خلالها . . والزعيم الذى ارتبط مصيره بمصيرها . . وارتبطت هى باسمه . .

لكننا لن نلجأ إلى أسلوب السرد التفصيلى والمتسلسل للأحداث فإن الراغب فى مثل هذا السرد يستطيع أن يجده فى كثير من المراجع المتاحة .. مثل مصر للمصريين لسليم خليل نقاش . . والثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لعبد الرحمن الرافعى . . وهناك أيضاً بالإنجليزية التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر لولفريد بلنت . . وغيرها من الكتب والمراجع القيمة .

بل سنحاول أن ندرس عدة مواقع اجتماعية وسياسية وفكرية هامة ومن خلال دراستنا هذه نأمل أن نقدم للقارىء صورة متكاملة للثورة وأحداثها وتطوراتها . .

كل ذلك بهدف الحفاظ على المنهج الذى اتبعناه منذ البداية فالحدث التاريخى فى جوهره ليس شيئاً عارضاً ولا مجرداً لكن له دلالة ومضمون اجتماعيين . . وهكذا ومن خلال التحالفات الطبقية والصراعات الطبقية داخل المواقع التى اخترناها ستبدو أحداث الثورة — فى اعتقادى — أكثر وضوحاً وجلاء . . على الرغم من أنها سوف تناقش بصورة غير مباشرة .

— ثم أننا نظلم الناس والأحداث معاً إذا ما سمحنا لتيار الأحداث المتسلسل أن يتسلط على المواقف مبعداً كل ما يمس هذا التسلسل . . من إيضاحات أو علاقات مترابطة أو انتماءات طبقية . .

حتى عرابى نفسه . . زعيم الثورة وحامى حمى الديار المصرية . . كما سماه المثقفون . . أو « الوحيد » كما سماه الفلاحون . . حتى هذا الرجل الذى وقع عبء الثورة على كتفيه والذى تحمل هو . . وتاريخه الكثير من العنت والاضطهاد لن نتحدث عنه بالتفصيل . . لن نقول ابن من هو فإننا نكتفى بأنه ابن واحد من هؤلاء الفلاحين الذين تحدثنا عنهم فى الجزء الأول . . هو نتاج كل هذا القهر والضغط والحرمان . .

هو واحد من أبناء الفلاحين الذين مزقوا ستار الظلام وانطلقوا نحو المدينة ليتعلموا ويصبحوا ضباطاً فى الجيش .

ولكننا مع ذلك لا ننكر أثر المميزات الشخصية للزعيم . . فانها تلعب هى الأخرى دوراً ذا أثر . . بل لعلها ضرورية لكى نفهم تصرفات الرجل ومواقفه بصورة أعمق وأكثر دقة . .

وهكذا تتحدد البداية . .

١

« اعلموا يامعاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل ما من شأنه الإجحاف بحقوقكم .. فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة إليكم من ضمن هذه النشرة وهى الكتابة المقصود بها أن أكون نائباً عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد .

من منشور أصدره أحمد عرابى طالباً من الشعب التوقيع عليه وتوكيله للدفاع عن مصالح الأمة .

عرابى . . جندى . . فلاح . . أزهرى

الله . . محمد . . على .

رب يسر ولا تعسر .

بسم الله الرحمن الرحيم .

٤٠١٠٣٠٨٩٠١٠٨٨

الكلمات للتبرك . . والأرقام لاتقاء الحسد . . مكتوبة بخط ساذج على واجهة المنزل الصغير المبنى من الطين . . المنزل الذى باعوه منذ عدة سنوات بخمسين جنيهاً لا أكثر . .(١)

وفى هذا المنزل ولد أحمد عرابى . . أبوه يمتلك ثمانية فدادين ونصف لم يتعلم فى الكتاب لكن أباه سلمه إلى صراف الناحية ميخائيل غطاس فلازمه خمس سنوات تعلم فيها القراءة والكتابة والحساب . . ومن غطاس إلى الأزهر حيث أقام الفتى أربع سنوات كاملة ثم عاد إلى قريته ليناديه الفلاحون « الشيخ أحمد » .

لك الشيخ أحمد ينتزع من القرية جبراً ليجند فى الجيش . .

ومن رتبة نفر عادى بدأ عرابى رحلته فى العسكرية .

ولأنه كان يجيد القراءة والكتابة والحساب ويحفظ القرآن . . وبواسطة باشجاويش من بلدته كان يعمل « بروجى » للخديو سعيد . . عين عرابى بلوك أمين للبلوك السابع من الأورطة الرابعة لآلاى المشاة الأول . . . لكنهم كانوا حتى ذلك التاريخ يسمونه « الشيخ أحمد » وكان الشيخ أحمد لا يزال

---

(١) راجع مقال أحمد بهجت . الأهرام ١٩/١١/١٩٦٢.

شاباً صغيراً فى السادسة عشرة من عمره فقد دخل الجيش وهو فى الرابعة عشرة . .

ثم كانت لمحة الحظ فى حياة عرابى عندما رقاه سعيد إلى رتبة الملازم . واختاره ياوراً له .

والحقيقة أن « سعيد » قد فتح مجال الترقى واسعاً أمام الضباط المصريين فلا يبلغ عرابى العشرين من عمره حتى يصبح قائمقائمقام .. (١) .

والحقيقة أن مؤهلات عرابى الشخصية التى كفلت له إعجاب قائده سليمان باشا الفرنساوى . . قد دعمت برغبات الوالى سعيد باشا فى ترقية مزيد من المصريين ليتخلص من سيطرة النفوذ التركى والشركسى على الجيش .

لكن « سعيد » يمضى .. وتمضى معه الأيام الذهبية للجندى المصرى .. ويعود الشراكسة من جديد ليتسلطوا على كل مصائر الجيش . . ويبقى عرابى ١٩ سنة كاملة دون ترقية .. بل إنهم يبعدونه عن العمل العسكرى . . فإذا ما سافرت حملة الحبشة كان عرابى مختصاً بمسائل التموين فى أحد المراكز . . وكانت هزيمة الجيش المصرى تجرى أمام عينيه وتزيد حقده على القيادة التركية والشركسية . .

وهنا يبدأ التمرد الحقيقى فى حياة عرابى . . هنا تصبح قضيته الشخصية جزءاً من قضية عامة هى قضية الضباط الفلاحين بالجيش المصرى . . بل جزءاً من قضية الوطن كله . .

ويبدأ عرابى المسيرة الطويلة للنضال . .

ويروى محمود فهمى باشا حادثة ذات دلالة .

« ففى سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥) دخل أحمد عرابى أحد الآلايات المرتبطة بناحية رشيد فأخذ من ذلك الوقت فى تأليف قلوب الضباط أولاد

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع مصر للمصريين جـ ٤ ص٨٢ .

العرب وجمع كلمتهم على ولائه وإظهار الأسف لحرمانهم من الترقيات فى حين أن الضباط الترك والشراكسة مغمورون بها . . » (١)

وبدأ الشراكسة يتوجسون شراً من هذا الضابط الفلاح . . وحدث صدام بسيط بينه وبين خسروا باشا . . وأحيل عرابى إلى مجلس عسكرى حكم عليه بالحبس ٢١ يوما . . بعد أن وصفه خسرو بأنه متمرد يحقد على الأتراك .

وكان يمكن للأزمة أن تمر . . كان يمكن لعرابى أن يحنى رأسه قليلا لكنه واجه المجلس العسكرى برفضه للحكم معلنا أمامهم « إنه لايقبل هذا الحكم لأن حكم المجلس يتسم بالظلم ومراعاة الخواطر » (٢) .

وشهق الضباط الشراكسة من جرأة الفلاح . . وأسرعوا إلى اسماعيل الذى أصدر قراراً بإبعاده عن الجيش . .

. . لكن عرابى يعود . . فقد تزوج فى هذه الأثناء بابنة مرضعة الهامى باشا وهى شقيقة حرم توفيق بالرضاع . . وكان هذا كافياً لعودته إلى الجيش . . والحقيقة أن ظاهرة تزوج الضباط الفلاحين من تركيات أو مرضعات فى القصر كانت منتشرة فى هذه الأيام . . وكان القصر يشجعها بهدف استيعاب هؤلاء الفلاحين وعزلهم عن طبقتهم . .

وكان على بك فهمى . . أحد قادة الثورة متزوجا هو الآخر من سيدة شركسية الأمر الذى أتاح له علاقة وثيقة بالقصر . بل وصل به إلى رتبة قائد حرس القصر الخديوى .

ويعود عرابى إلى الجيش . . ليجد نفس التربة المتذمرة . . ونفس الاضطهاد للضباط الفلاحين . . وشئ آخر أهم من هذا كله . . جماعة سرية من الضباط شكلها على الروبى .

---

(١) كتاب البحر الزاخر ، محمود باشا فهمى ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) مصر المصريين ج ٤ ص ٨٢

ويبدأ الصراع محتدما ..

لكننا لا نريد أن نخوض الآن فى تطورات هذا الصراع .. نريدفقط أن نلقى مزيدا من الضوء على شخص هذا الرجل ..

ولنر ماذا يقول عنه بلنت ..

عندما التقيت بعرابى لأول مرة استقبلنى بحرارة ..فقد سمع أننى أعطف على قضيتهم .. وقال لى إنه يحبنى لأننى قريب بيرون .. ورغم أن عرابى لم يسمع شيئا من شعر بيرون إلا أنه أكد لى أنه يحبه لأن عمل من أجل حرية اليونان » .

ويمضى بلنت « أن عرابى نموذج للقائد الفلاحى .. طويل ..عريض المنكبين بطىء الحركة نوعا ما .. يشبه فى مشيته مشايخ البلاد .. أسمر الوجه إلى الحد الذى كان يجعل الأتراك ينفرون منه.. ذا نظرة غريبة .. قد تبدو جامدة وقد تبدو حالمة .. لكنه كان مبتسما على الدوام وما أن يتكلم حتى يكتشف الإنسان طيبته وذكاءه .. لقد كرهه رياض باشا منذ اللحظة الأولى وحتى رجال الإصلاح فى الأزهر كانوا يقللون من قيمته كسياسى .. لكن أهم ما يميز عرابى هو أنه فلاح من طبقة الفلاحين .. كان واحدا من هذه الطبقة .. وليس مجرد قائد لها . هو قطعة من الفلاحين. . يتصف بنفس صفاتهم .. » (١)

أما نينيت فإنه يرسل إلى بلنت قائلا :

« أن عرابى ليس مجرد قائد للفلاحين ولكنه قطعة مجسدة من الطمى الأسمر الذى يحمله النيل » (٢) .

لكننا لانزال بحاجة إلى مزيد من السمات الشخصية .. لنعرف الرجل عن قرب ..

فى عنفوان المعركة ضد الخديو .. فوجىء الجميع بعرابى يتصالح معه .. وينزعج بلنت ويرسل إلى صابونجى يستفسر منه عن السبب .. وتأتى رسالة من صابونجى ..

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٢) المرجع السابق ٢٨١ .

« القاهرة فى ١٤ يوليو ١٨٨٢ .

لقد قابلت عرابى باشا اليوم وتداولت معه .. وقال لى : اننى أعتقد أن الخديو قد يخلص فى صلحه معى ما لم يؤثر عليه المستر مالت الذى يكرهنى كراهية شديدة .. لقد مد لى الخديوى يده راغبا فى الصلح معى أمام ستة من ممثلى الدول الأوربية .. ودرويش باشا .. وقد قبلت الصلح وأقسمت أن أخلص له وأن أحمى حياته .. وأنا عازم على الوفاء بقسمى طوال عمرى مالم يحنث هو ويرجع عن كلمته .. اننى أخلص لكل من يخلص لى .. أما هؤلاء الذين يتصرفون بغير شرف فأننى أتعامل معهم بنفس العملة التى يتعاملون بها .. ولسوف أستخدم الخداع ضد المخادعين » (١) .

وموقف آخر .. مع الأتراك ..

ونحن نعرف أن عرابى كان يكره الأتراك .. لكنه طبعا لم يكن ليجرؤ كأى سياسى على تحدى خليفة المسلمين علانية .

وتبدأ سلسة من المناورات يلعب فيها السلطان دور السيد الماكر الذى يلوح باستمرار بمزيد من الإنعامات فى مقابل الخضوع ..

وينظم أحمد راتب بك سلسلة من المراسلات سرية بين عرابى والباب العالى والباب العالى لم يكن ليطمع فى اكثر من شيئين :

١ - ضرب النفوذ الأوربى فى مصر .. وعلى عرابى وجيشه وجماهيره أن تقوم بهذه المهمة طالما أن الباب العالى لا يملك القدرة على ذلك ..

٢ - إبقاء مصر فى حالة خضوع تام للباب العالى .. وعلى عرابى أن يقوم بذلك فى مقابل الثمن ..

فما هو الثمن ..

يقول راتب باشا فى رسالته السرية المؤرخة فى ٢٢ فبراير ١٨٨٢ ..

« اننى أقسم لك بالله العظيم أن جلالة السلطان قد أبدى أسفه العميق لأنه تأثر فى الماضى بهذه الترهات التى قيلت عنك .. وقد أمرنى جلالته أن أكتب إليك هذه الرسالة كتعبير عن رضاه السامى عنك ولكى أبلغك بالآتى ..

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣٩ .

إن الباب العالى لا يتمسك بخديوى معين لحكم مصر .. لكن المهم هو أن يكون الخديوى شخصاً قادراً على حماية مصر ومستقبلها وعلى ضمان سيادة الخليفة » .

وتمضى الرسالة .. لتطلب فى سطورها الأخيرة من عرابى .. أن« يبذل جهده لحماية مصر ومستقبلها وكفاية الأمن فيها .. وإن هذا هو أمل الباب العالى فيه » .

وفى رسالة سرية ثانية يحررها الشيخ محمد ظافر الكاتب للباب العالى يقول .. « إن جلالة السلطان المعظم يلاحظ تزايد اهتمام انجلترا وفرنسا بمصر .. وإن رسائل وتلغرافات الخديو توفيق توضح ضعفه وتخاذله بل أن كل واحد منها يناقض الآخر ويهدمه .. إننى أنقل إليك رغبة خاصة لجلالة السلطان بأن تفتح عينيك جيداً لتراقب هؤلاء الأشخاص .. وهذه الأحداث .. »

وبعد أن يروى الشيخ ظافر كيف أن أحمد راتب بك وعلى نظامى باشا وعلى فؤاد بك قد امتدحوا عرابى أمام الأسماع الشاهانية الأمر الذى دفع السلطان إلى أن يطلب من الشيخ ظافر أن يكتب لعرابى مؤكداً أن الباب العالى يثق كل الثقة ويعتمد عليه لمنع وقوع مصر فى أيدى الأجانب .

وتمضى الرسالة إلى غايتها الحقيقية فيقول الشيخ ظافر :

والآن سأبلغك خبراً غاية فى السرية .. هو أن جلالة السلطان لا يثق فى إسماعيل ولا فى حليم ولا فى توفيق .. وأن رجل المستقبل بالنسبة لمصر هو الذى يستطيع أن يحميها .. وأن يقوى علاقتها بالباب العالى » . ومرة أخرى أود أن أؤكد لك أن جلالة السلطان يمنحك كل ثقته (١)

هكذا كان العرض واضحاً تماماً .. الخضوع للسلطان .. مقابل ثمن مغر جداً .. كرسى الخديوية .

---

(١) بلنت – المرجع السابق ص ٢٥٨ وما بعدها .

لكن عرابى يرفض ، فهو يعادى التدخل الأجنبى لا لمصلحة السلطان .. وإنما لمصلحة مصر ..

يعلق بلنت على هذا الرسائل قائلا .. « لقد رفض عرابى أن يصبح أداة فى أيدى السلطان مقابل كرسى الخديوية بل على العكس اتخذ موقفاً حازماً .. فهو يكره الأتراك إلى حد أنه مستعد لمحاربتهم إذا ما أرسلوا جنوداً إلى مصر » (١) .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يعرض فيها كرسى الخديوية على عرابى .. فقد عرض عليه محمود سامى البارودى .. وكان وقتها ناظراً للجهادية « أن ينادى به خديواً لمصر » .

لكن عرابى يرفض قائلا : لا يا محمود باشا فإننى لا أريد إلا تحرير بلادى وليس لى طمع أصلا فى الاستئثار بالمنافع الشخصية » (٢)

غير أن الرشاوى والمغريات كانت بلا حدود .. ويراجع بلنت مذكراته عن يوم ١٣ يونيو ١٨٨٢ ليجد فيها .

« أبلغنى باتون أمس أن روتشيلد مستعد لأن يعطى عرابى ١٠٠,٠٠٠ فرنك سنوياً ومدى الحياة إذا ما ترك مصر » (٣) .

وكان ذلك أعقاب مطالبة انجلترا وفرنسا بخروج عرابى من مصر وإقالة وزارة البارودى وتحديد إقامة فهمى وعبد العال حلمى .. ورفض عرابى هذه اللائحة .

وسارت الجماهير تهتف « اللايحة .. اللايحة .. مرفوضة مرفوضة » .

ويروى عرابى لبلنت قصة أخرى حول هذا الموضوع .

فى يوم ٢٦ مايو أى بعد تقديم اللائحة قابلنى القنصل الفرنسى وعرض

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦١ .
(٢) الرافعى – المرجع السابق ص ١٩٦ .
(٣) بلنت ٣٣ ص ٤ .

على أن تقدم لى الحكومة الفرنسية ٥٠٠ جنيه شهرياً إذا ما غادرت البلاد إلى باريس حيث سأعامل كما يعامل الأمير عبد القادر .. لكننى رفضت ذلك بشدة وقلت له أن واجبي يحتم على أن أبقى فى وطنى وأن أدافع عنه حتى الموت لو اقتضى الأمر ذلك .. »(١)

وثمة قصة أخرى للرد على هؤلاء الذين اتهموا عرابى بالتهور . فعندما تآمر الشراكسة عليه وعلى زملائه واستدعوهم إلى قصر النيل حيث قبضوا عليهم وجردوهم من أسلحتهم وبدأوا فى محاكمتهم محاكمة صورية .. اقتحم الجنود المصريون بقيادة الضابط الشجاع محمد عبيد قاعة المحكمة ليخلصوا زعماءهم . وساعتها ألقى الضباط الشراكسة بأنفسهم إلى النيل لكن الجنود الثائرين قبضوا على إسماعيل باشا الشركسى .. وكادوا أن يفتكوا به .. لكن عرابى الذى قد أفلت لتوه من مؤامرة شركسية لإعدامه والذى أهانه الشراكسة خلالها إهانات بالغة .. أدرك أن الإعتداء على إسماعيل باشا سوف يقلب الحادث من مؤامرة ضد الضباط الوطنيين إلى اعتداء على أحد قادة الجيش الكبار .. وسوف يعطى الفرصة لأعدائهم إلى تحويلهم إلى متهمين من جديد بتهمة جديدة .

وبين دهشة الجنود احتضن عرابى إسماعيل باشا الشركسى قائلا :

« هذا الباشا شركسى ولكن أنا أعانقه وأقبله أمامكم لكى تعلموا أن هؤلاء — الضباط لا ذنب لهم فقد كانوا منفذين لأوامر من هم أعلى منهم فقط ونحن لا نريد الإنتقام وإنما نريد العدل والإنصاف والمساواة .. إن هذا الباشا أخى وإخوكم حرام علينا دمه وماله وعرضه » (٢)

والحقيقة أن عرابى كان يتخذ موقفاً مبدئياً من إراقة الدماء .. ومن الاغتيالات وقد كان النديم داعية الثورة يفاخر دائماً أنهم « ملكوا زمام

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣٤ .

(٢) أحمد عبد المجيد الفقى .. سلسلة الكتاب الماسى ص ٤٠

الحرية مع حفظ الأرواح والأعراض مع أن فرنسا أهلكت فى حرب الباستيل عشرات الألوف من الأرواح » (١)

.. ويتحمس الكثيرون لاغتيال توفيق .. لكن عرابى يرفض الفكرة أكثر من مرة فقد عرض عليهم إسماعيل باشا راغب أن يرسلوا بلوك من العساكر لقتل الخديوى ويعلق عرابى على ذلك قائلا : « فعلمنا مبلغ حكمته واستعذنا بالله من شر رأيه لأننا لم نر إلا الإصلاح بالتى هى أحسن ولأن ذلك العمل الفظيع ضد مبادئنا على خط مستقيم » (٢)

ثم يوجه الإنجليز والفرنسيون « لائحتهم » ويرفضها الشعب ، لكن الخديوى يقبلها .. وتقف الثورة فى مفترق طريق حقيقى .. هل تخلع الخديوى ؟ .. هل تقتله ؟ . ويروى عرابى فى مذكراته ..

« توجهت وعدد من الضباط إلى منزل محمود سامى باشا فقابلنا عبد الله باشا فكرى كان أستاذاً ومربياً للخديو فى صغره فبادرنا قائلا :

هل قتلتموه ؟

فقلت له .. من تعنى ؟ فقال أعنى الخديو

فقلت له « إننا لا نقتل أحداً بغير حكم شرعى فلا يليق بك أن تتكلم بهذا الكلام »

ثم يلتف الضباط جميعاً حوله مطالبين بقتل الخديو

ويظل هو يحاورهم .. إن هذا حرام ولا يجوز شرعاً ..

فاستفتوا رجال الدين فأحلوا قتل الوالى الذى يحاول تسليم الوطن للعدو وخاصة العدو غير المسلم ..

لكن عرابى يلجأ إلى سبب آخر قائلا « إذا قتلتموه سوف يثور علينا

---

(١) النديم المرجع السابق ص ١٥٣ .

(٢) قصة أحمد عرابى المرجع السابق ص ٤٠ .

أعداؤنا فى الغرب بحجة أننا فوضويون ومتوحشون ونقتل ولاة أمورنا فخير لنا أن نعزله فقط .

ورد محمد عبيد قائلا « الرد على كلام سعادتك بسيط .. أنا أقتله وتحا كمونى عليه بالإعدام .. »

ويسقط فى يد عرابى ويصيح فى فزع « إمسكوا الراجل ده .. كتفوه أحسن ده متهور » (١)

وربما كان عرابى مخطئاً .. ربما كان من الأفضل منع الخديوى من الخروج من القاهرة إلى الاسكندرية هو ودرويش باشا كما يقول صابونجى الذى كتب إلى بلنت يقول أن عرابى قد ارتكب الغلطة القاتلة ..
لقد ترك الخديوى يرحل إلى الإسكندرية .. بل لقد ودعه حتى المحطة

وكان من الواجب أن يبقيه فى قبضته بدلا من أن يسلمه إلى قبضة أعدائه
لكنها طبيعة عرابى التى يصفها بلنت أدق وصف قائلا :

« لو كان عرابى حاكما قوياً بحق . . لو كان يحسن اختيار الناس وانتهاز الفرصة وباختصار لو كان عرابى رجلا علمياً ولم يكن رجلا حالما لكان قد استطاع أن يكسب الجولة الدبلوماسية ضد أعدائه المخادعين . كان يحتم عليه أن يبطش بأعدائه الذين دبروا فتنة الإسكندرية : . لقد كان صاحب السلطة الحقيقية فى مصر لكنه لم يدع أعداءه يشعرون مطلقا بثقل هذه السلطة ولو فعل ذلك ثم استدار إلى السلطان والأوربيين موجها إليهم كلمات قاسية لتغير مصير الثورة . . لكن لسوء حظ الحرية التى كان عرابى يدافع عنها . . أن هذا الزعيم لم يكن رجلا شديد الوطأة . . وإنما كان رجلا حالما . . يتمسك بمبادىء إنسانيه مجردة . . كان يجهل أوربا . . والخداع الأوربى وظل يتعامل معها متمسكاً بالمبادىء » (١)

(١) المرجع السابق ص ٤١ .

(١) بلنت . الرجع السابق ص ٢١٦ .

هذا هو عرابى رجل السياسة . . لكن الصورة مع ذلك لا تزال ناقصة فثمة أشياء كثيرة عن شخصيته ضرورية حتى تكتمل الصورة.

لنتقدم خطوة إلى الأمام فى التعرف على الرجل . .

. . عندما وصلوا إلى سيلان منفيين لاحظ مرسل جريدة الأوبزرف السيلانية « أن نساء كل الباشوات الذين صاحبوا عرابى قد كشفن عن وجوههن فبدت الوجوه البيضاء حتى ليظن الإنسان أنهن أوربيات . . أما السيدات المرافقات لعرابى باشا فقد كن محجبات تماماً » (١)

ويمضى المراسل . .

« سألت عرابى باشا عن مشاريعه فأخرج من جيبه كتاباً لتعلم الإنجليزية وقال أنا مهتم جداً بتعلم هذه اللغة . .

ـ وسألت عرابى ماذا ستصنع بأولادك ؟

ـ سأدخلهم المدرسة .

ـ لكن المدرسة مسيحية وعلى رأسها قسيس؟

ـ هذا لا يؤثر على الموقف فأولادى قد حفظوا القرآن

ـ على العموم هناك مدرسة خاصة للبنات

ـ هذا أحسن بطبيعة الحال

ـ هل عندك مانع فى أن يقوم طبيب مسيحى بعلاج سيدة مسلمة ؟

ـ لا مانع

ـ وهل تثق المرأة المسلمة فى العلاج الذى يصفه الطبيب المسيحى ؟

ـ إنها تعتمد فى ذلك على ضمير الطبيب نفسه

---

(١) الاوبزوفر السيلانية . . العدد الاسبوعى الصادر فى ١٨٨٣/١/١١ ص ١١

— وهل الرجل غير المسلم ضمير ؟

— أعتقد ذلك

وهكذا يعبر عرابى عن أفكار غاية فى التقدم والواقعية فى بساطة شديدة سحرت المراسل الذى علق على الحديث قائلا « ليس عرابى بالرجل الجاهل . . بل هو يعرف كيف يصوغ معلوماته القليلة فى عبارة ترضى الناس » (١)

ولكن عرابى ذلك كان متشددا فى كل ما يتعلق بأسرته . . بل أن عقلية الشرقاوى . . الأزهرى المتشدد كانت تبدو صارمة إلى الحد الذى لم يعرف أحد فيه أى شىء عن أسرة عرابى . .

ولا يستطيع المؤرخ أن يبحث عن مصادر لعلاقات عرابى العائلية إلا بعد نفيه حيث بدأت الرسائل تتداول بينه وبين أبنائه .

وعندما يرسل إليه أبنه حسن طالباً منه أن يشترى له دراجة من سيلان . .

يكتب إليه قائلا « أما الدراجة التى تطلبها لتركبها فاعلم يا ولدى أنها ذات خطر عظيم لا ينبغى لعاقل أن يستعملها لأن كثيراً من الناس ماتوا من صدمة الوقوع بها ومنهم شقيق قيصر روسيا وكثيراً ما تكسرت أذرعتهم وأرجلهم وفضلا عن ذلك فإن الذين يستعملونها يصابون بمرض القلب ويكون ذلك سبباً فى موتهم أحداثاً فلذلك ننصحك بأن تستعمل رجليك فى المشى فانها خلقت لذلك وإذا أردت الركوب فلركب الفرس والبغل والجمل والحمار أكرم وأعز وآمن من تلك » .

وثمة رسالة أخرى لكنها شديدة الصرامة . . يوجهها عرابى إلى :

« حضرة صاحبة العفة والعصمة حرمنا المحترمة رعاها الله آمين . . نخبركم بأن كريمتنا أم كلثوم أرسلت لنا جواباً وبتلاوته حصل لنا كدر شديد إذ أنه علم لنا منه أنها تخلقت بأخلاق ذميمة وتلك الأخلاق ليست

(١) لمزيد من التفاصيل راجع مقال أنيس منصور . آخر ساعة ١٢/٨/٩٥٩

من طباعها أصلا بل أنها اكتسبت ذلك من مخالطتها إلى بحرم أخيها التى ابتلانا الله تعالى بها . . »

ويمضى عرابى فى تعديد انتقاداته على ابنته ويقول :

« ومنها أنها تتعلم الكتابة الإنجليزية وتضع إسمها على الجوابات المرسلة لنا بالقلم الإنجليزى الأمر الذى تستوجب عليه قطع أيادبها . . فهى تتعلم لغة قوم لايعود علينا وعليها منها إلا الضرر والفضيحة والعار فيقتضى تفهيمها بذلك بحضور أخوتها جميعاً »

والغريب فى الأمر أن عرابى نفسه كان يبذل كثيراً من الجهد فى تعلم الإنجليزية بل أنه كان يدعو سكان كولومبو حيث أقام فى منفاه إلى تعلم الإنجليزية مؤكداً لهم أن « من تعلم لغة قوم آمن شرهم » وأحس عرابى أن الاصدقاء ينفضون عنه ..وإن الناس تتحاشاه» وقيل له أن السبب هو دعوته لتعلم الإنجليزية .

وبدأ عرابى يزورهم فى بيوتهم واحدا واحداً حتى اقتنعوا برأيه(١) .

وهكذا هو يدعو الناس إلى تعلم الإنجليزية ويلح فى هذه الدعوة بل هو نفسه يبذل ــ غاية جهده ليتعلمها . . فاذا ماحاولت إحدى بناته أن تتعلمها عد ذلك أمراً يستوجب قطع أيادبها . . فهى ترتكب مسألة لا يعود علينا وعليها منها إلا الضرر والفضيحة والعار . .

وفى المنفى كما فى بلاده كان عرابى نفس المناضل الذى لا يهدأ . . يراسل بقايا الثورة فى أرض الوطن . بل إن مراسلاته تمتد حتى عبدالله النديم الهارب من مطاردات لا نهاية لها

وهو يدعو السيلانيين إلى إنشاء مدرسة إسلامية ويمر على البيوت بيتا بيتا بجمع التبرعات حتى جمع ٢٥٫٠٠٠ روبية ويضغط على الحكومة الإنجليزية حتى تدفع مبلغاً مماثلا . . وفى يوليو ١٨٩٢ وضع عرابى حجر

---

(١) مقال أنيس منصور المرجع السابق .

الأساس « للمدرسة الزاهرة » التى لا زالت موجودة حتى الآن « زاهرة كوليدج » وأصبح عرابى الرئيس الفخرى للمدرسة .

وفى كل حين كان عرابى الوطنى الذى يعتز بوطنيته . . وحتى رسائله إلى زوجته أو أولاده . . كان يوقع عليها . . خادم وطنه . . أحمد عرابى الحسينى المصرى . . والمصرى ليس جزءاً من اسمه لكنه أضافها إليه بعد أن سحبوا منه لقب باشا فأضاف هو (المصرى) فهى فى نظره أفضل من لقب باشا . . .

٢

« إن المصريين أطفال ، ويجب أن يعاملوا معاملة الأطفال . وقد قدمت لهم الدستور الملائم لهم فإن لم يعجبهم فعليهم أن يبقوا بدون دستور.

إننى أنا الذى أنشأت الحزب الوطنى وسيجدون أنهم لا يستطيعون العمل بدونى . فإن هؤلاء الفلاحين بحاجة دوما إلى من يرشدهم .»

شريف باشا
عندما رفض النواب المصريون مشروع الدستور الذى قدمه

حزبان . . واحد للأعيان وآخر للفلاحين

كان شريف باشاً صادقاً تماماً عندما قال فى حدة التركى المتغطرس .

« إننى أنا الذى أنشأت الحزب الوطنى . .

ولم يكن شريف باشا وحده . . وإنما أيضاً سلطان باشا وشاهين باشا كنج وحسن باشا الشريعى . . وسليمان باشا أباظة وعمر باشا لطفى واسماعيل باشا راغب . . إلخ .

ولست أريد أن أقف طويلا عند هذه الأسماء . . فقط أريد أن أذكر أنهم جميعاً باشوات . . . وانهم مزيج بين الأتراك والأعيان المصريين. .

وإن أسماء عديدة منهم قد وردت فى الجزء الأول من هذا الكتاب ونحن نعدد أسماء كبار ملاك الأرض . .

سلطان باشا ١٣ ألف فدان

أباظه باشا ٦٠٠ فدان

شريف باشا ٤٠٠٠ فدان . .

وهكذا . .

فالاتراك ثائرون على تسلط الخديو . . يبحثون عن طريق يمنحهم مزيداً من السلطة . .

وكبار اعيان المصرين ثائرون هم أيضاً . . فالضرائب زادت والمقابلة ألغت . . هم أيضاً يبحون عن سبيل إلى السلطة . .

ولم يكن أمامهم جميعاً من سبيل سوى رفع راية المطالبة بالدستور والبرلمان .. والحكومة المسئولة . .

وكان الحزب الوطنى تجمعا للقوى الطبقية التى ترى فى نفسها القدرة وتعطى لنفسها الحق فى أن تحكم هذا البلد . .

كان تجمعاً طبقياً بكل معنى الكلمة ..

فهم يكرهون الخديوى لتسلطه واستئثاره بالسلطة وحده .

وكانوا يكرهون التدخل الأجنبي إذا ما زاد عن الحد الذى يسمح لهم باستلام السلطة ..

وهم فى نفس الوقت يكرهون الفلاحين ويحتقرونهم ..

يقول بلنت « كان شريف باشا تركيا متفرنجاً لا يخلو من الغطرسة واحتقار الفلاحين وكان ينظر إلى قادة الثورة نظرة استهانة واحتقار . إن فكرة الدستور فى عقول هؤلاء الرجال كانت تنحصر فى تخليص السلطة من يد الخديو لكى يستأثروا هم بها .. إن صيحة الدستور جميلة ولكن إذا عرفنا أنه كان من بين رجالها واحد مثل سلطان باشا لأدركنا أنهم طلاب حكم لا أكثر .. »(١)

وتبدأ جماعة الباشوات فى العمل السرى ..

ويصدرون فى ٤ نوفمبر ١٧٨٩ منشوراً سرياً طبعوا منه ٢٠٫٠٠٠ نسخة . يورد سليم نقاش نصه قائلا :

وفى هذه الفترة ظهرت عدة منشورات متباينة الأغراض والأوضاع أشار فيها محرروها على الحكومة بانتهاج ما يزعمون أنه نافع للبلاد والعباد .. ومن ضمن تلك النشرات كراسة فرنسوية العبارة مرسومة باسم « الحزب الوطنى المصرى » .

---

(١) بلنت المرجع السابق ص ١٩٦ .

يزعم ناشرها أنها معربة عن أصلها العربى وقد افتتحت بإثبات وجود الحزب الوطنى وإظهار حقوقه وبيان واجباته ثم انتقل صاحبها إلى الانتقاد على الحكومة من وجهة أنها لم تقم برأى الأمة .. »(١)

وكان بياناً كهذا كافياً تماماً ليحدث انقلاباً شاملا فى الحياة السياسية فى مصر ..

فقد كانت الطبقات جميعاً تموج بالثورة ..

وتقدم الأعيان المعركة ..

ولا يمضى وقت طويل حتى ينضم محمد عبده وبقايا مصر الفتاة إلى الحزب .. وحتى يكسب الحزب أنصاراً له فى الجيش ..

أنصار مثل . محمود سامى البارودى .. فهو مثلهم واحد من أبناء الشراكسة الأغنياء .. يدعو للدستور .. ويرفض تسلط الخديو ..

ويصف بلنت محمود سامى بأنه « واحد من القادة الليبراليين وأنه بدأ النضـال مبكراً منذ أيام اسماعيل .. وأنه عانى كثيراً من ليبراليته ومن تمسكه الشديد بمبادئه وأنه كان مثقفاً واسع الاطلاع .. شاعراً مجيداً .. يكرهه الأتراك لتعصبه للمصريين »(٢) .

وهكذا تتسع قاعدة الحزب وتتفتح رويداً رويداً على الطبقات الشعبية .

وفى المقابل كان الخديوى يحاول أن يستأسد وأن يشدد قبضته .. فقبيل إعلان الحزب بحوالى الشهر .. كانت وزارة شريف يطاح بها .. بل إن مبدأ وجود مجلس الوزراء يمارس الحكم .. كان يطاح به أيضاً ..

فالخديوى يكتب للنظار الجدد قائلا : « بما أن مجلس النظار قد صار

---

(١) مصر للمصريين جـ ٢ ص ٧٩ .

(٢) بلنت ص ٣٢٨ .

— إلغاؤه وإبطاله وتقرر لدينا أن يكون كل وزير مسئولا عن الأشغال المنوطة بإدارة نظارته وأن المواد التي كان جارياً تقديمها رؤيتها بذلك المجلس يكون النظر من الآن فصاعداً بمجلس يجرى انعقاده بمعيتنا من النظار تحت رئاستنا .. »(١) .

الخديو إذن يحدث نوعاً من الانقلاب الدستورى .. مستحوذاً لنفسه على مزيد من السلطة . . ويؤكد سليم نقاش « أن استعفـاء وزارة شريف باشا كان بسبب ميله إلى تأييد كلمة الشورى فى القطر المصرى مما أوجب نفرة الأجانب من وزارته فسعوا فى حملها على الاستعفاء كراهة أن يتم ذلك »(٢) .

وكان الأعيان مستاءون من رياض باشا فهو بتقويته لجهاد الإدارة الإقليمى وبمنحه مزيداً من السلطات للمديرين والمأمورين قد أضعف إلى حد كبير من نفوذ العمد والأعيان .

وكانت بيانات الحزب الوطنى تساندها صحافته العلنية . ونفوذ الأعيان وكبار الموظفين .. ثم ابتدأ نشاطه يمتد إلى المثقفين ضباط الجيش..وكانت ذلك بداية لانطلاقة جديدة فى النضال الوطنى ..

كان الأعيان يعلنون التمرد .. لكنهم نسوا فى غمار حماسهم لتحقيق مصالحهم الطبقية أنهم كما يقول ملنر « كانوا كساحر أطلق عفريتاً من القمقم ولم يعد بقادر على السيطرة عليه .. »(٣) .

وفى صفوف الجيش كانت تنضج حركة أخرى . .

كان الضباط من التسلط الشركسى . .

وكانت حملة الحبشة دليلا واضحاً على فشل قيادة الجيش وعجزها..

(١) مصر للمصريين جـ٤ . ص ٢١
(٢) المرجع السابق جـ ٤ . ص ٢٠
(٣) ملنر — المرجع السابق ص

وعادت القوات المصرية المهزومة بعد أن فقدت ٨٥٠٠ قتيل .. وفقدت معهم كل الثقة فى النظام القائم وفى قيادة الجيش . .

وكان عرابى يمارس نشاطا داخل الجيش كما رأينا من قبل .. وفى خلال هذا النشاط التقى بعلى الروبى قائد التنظيم السرى العسكرى ..

وينضم إلى هذا التنظيم مجموعة من الضباط الذين يلتهبون حماساً . . محمد عبيد ، خضر خضر ، على فهمى ، عبد العال حلمى ، الفى يوسف.. وغيرهم . . والحقيقة أن قيام هذا التنظيم كان البداية الحقيقة لحركة شعبية فلاحية . .

فالجنود والضباط المصريون هم أبناء فقراء الفلاحين .. أبناء تلك الطبقة المطحونة التى يختطف منها أبناؤها فى العسكرية ..

ومن هؤلاء كانت الغالبية العظمى من التنظيم العسكرى ..(١)

ويزداد التسلط الأجنبى حدة .. وتوجه ميزانية الدولة كلها تقريباً لسداد الديون .. ويبقى ضباط الجيش ١٨ شهراً بلا مرتبات ؛ وبعد ذلك تعلن وزارة نوبار استغناءها عن ٢٥٠٠ من الضباط حتى تسدد أحد إقساط الدين من مجموع مرتباتهم .. وينجح الضباط ومعهم طلبة الكلية الحربية فى تنظيم مظاهرة صاخبة يضربون فيها نوبار علقة ساخنة .. (٢)

ويكون نوبار هو الضحية الأولى لرجال العسكرية ..

وتصدر الأوامر لعرابى بأن يسلم سلاح جنوده وأن يقوم الجنود بالمشاركة فى حفر الرياح التوفيقى .. ويرفض عرابى .

وفى ١٦ يناير ١٨٨١ سمع عرابى والضباط أن مؤامرة شركسية تدبر ضدهم وأن قرارا سيصدر بابعاد عبد العال حلمى إلى وظيفة معاون بالحربية ويحل محله رشيد بك نعمان (شركسى) وفصل أحمد عبد الغفار ويحل محله شاكر بك طمازه (شركسى) .. إذن كان الشراكسة يحاولون

---

(١) ملنر ص ٢٠ .
(٢) صبيح — ص ١٧٥ .

إبعاد رجال التنظيم العسكرى عن مواقعهم ٠٠ وفى هذه الليلة اجتمع الضباط بمنزل عرابى ٠٠ الذى يتحدث عن هذا الاجتماع فى مذكراته قائلا :

(سألتهم ماذا تريدون ؟ قالوا إنما جئنا لنرى رأيك ٠٠ فقلت رأيى أن تهدئوا نفوسكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا إليهم النظر فى مصالحكم وهم يتخذون من بينهم رئيساً يثقون فيه كل الوثوق ويسمعون قولة ويطيعون أمره ويحفظونه بمعاضدتكم إذا أرادت الحكومة به شراً ٠٠ فقالوا جميعاً أننا فوضنا إليك هذا الأمر فليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك . فقلت كلا بل أنظروا غيرى وأنا أسمع له وأطيع فقالوا ٠٠ أنا لا نبغى غيرك ولا نثق إلا بك ٠٠)

واقسموا جميعاً على السيف والمصحف .

وهكذا تولى عرابى الزعامة ٠٠

وفى تلك الليلة أعد الضباط عريضتهم ليرفعوها إلى رئيس الوزراء وتحددت مطالب التنظيم العسكرى فى :

١ — عزل ناظر الجهادية عثمان رفقى وتعيين غيره من أبناء الوطن .

٢ — ابلاغ الجيش العامل إلى ١٨,٠٠٠ جندى .

٣ — تعديل القوانين العسكرية لتكفل العدل والمساواة بين رجال الجيش (١) .

ويثور رياض باشا الحاكم المستبد على هذه الجرأة .

ويقول لعرابى (إنها مهلكة ٠٠ هذه العريضة مهلكة ٠٠ هل تريدون تغيير الوزير ٠٠ ومن يحل محله ٠٠

---

(١) يقول عرابى فى مذكراته أنهم طالبوا فى هذه العريضة بانشاء مجلس النواب . ولكن بلنت ومحمد عبدة والرافعى يؤكدون أنها كانت قاصرة على مطالبه العسكرية ٠٠ والأرجح أن عرابى وهو يسجل مذكراته بعد مضى فترة طويلة قد خلط بين هذه المطالب ٠٠ ومطالب سبتمبر ١٨٨١ .

ويرد عرابى فى بساطة الفلاح الشجاع « ياسعادة الباشا هل عقمت مصر بعد أن أنجبت ثمانية وزراء » (١)

.. . ويدبر الشراكسة مؤامرة قصر النيل .. ويقبض على عرابى وزملائه ويقدمون للمحاكمة ويؤكد عرابى أن النية كانت متجه إلى اغراقهم فى النيل ..

لكن المؤامرة تفشل .. ويقتحم الجنود المصريون قاعة المحاكمة ويفر القضاة وتنتهى الازمة باستقالة عثمان رفقى .

ويكون عثمان رفقى الضحية الثانية لرجال العسكرية .. ولم يكن كل ذلك بغير أثر . .

فالنظام باثره يهتز .. ورجال العسكرية يرفضون اطاعة أوامر قادة الجيش .. والبكباشى محمد عبيد يلقى القبض على ضابط أعلى منه رتبة هو الشائم خورشيد بك عندما يحاول منعه من الخروج بالجند إلى قصر النيل .

وخضر افندى خضر يرفض هو الآخر اطاعة الأوامر ويقبض على الفريق خورشيد باشا طاهر والاميرلاى خورشيد نعمان وغيرهم .. ويقود جنوده بالخطوة السريعة من طرة إلى قصر النيل » . .

ويثبت رجال الجيش أنهم قوة حقيقة قادرة على اجبار الطغاة على الخضوع وانهم سلاح فعال قادر على تحقيق امانى الشعب .

ويتحدث بلنت عن هذه الفترة قائلا .

« وفى أسابيع قليلة قفز عرابى إلى المقدمة فاصبح واحدا من مراكز السلطة فى البلد . ولو انها فى حقيقة الامر سلطة مفترضة ، وكعادة سكان مصر انهالت عليه العرائض من انسان مظلـوم أو مهضوم حقه يطلب اليه ان ينصفه ويمنحه حقه المسلوب .. وفى الحقيقة لقد أصبح عرابى فى فترة وجيزة

---

(١) بلنت ص ١٢٥ .

بطلا للفلاحين المضطهدين فى نضالهم ضد طبقة الأتراك . . ومنحه ذلك جماهيرية كبيرة خارج القاهرة فاتصل به كثير من الاعيان ومشايخ البلاد يطلبون منة المتاعدة ، وفتح عرابى صدرة للجميع يساعدهم قدر ما يستطيع ويبتسم فى وجوههم جميعا تاركا فى نفوسهم اثرا لايمحى » (١)

وهكذا يتبلور اتجاهان متميزان . من الخطأ الفادح ان نخلط بينهما .

حركة الأعيان يمثلها الحزب الوطنى . .

وحركة الجيش كامتداد لتذمر الفلاحين . .

ومرة أخرى اكرر انه من الخطا الفادح ان نخلط بين الحركتين ، فان لكل منهما مراكز طبقية مختلفة تماما . . ولكل منهما مطالب واماني مختلفة أيضا . .

لكننا يجب الانتصور ان الحزب الوطنى أو التنظيم العسكرى . . كانا تنظمين حزبيين بالمعنى المفهوم لدينا الآن . . دائما كانا فى حقيقة الامر مجرد قيادتين تتحركان دفاعا عن مصالح معينة . .

فليس ثمة تشكيل حزبى بالمعنى المفهوم .. وإنما هى تجمعات أو بمعنى أدق استقطابات لتيارات ومصالح وقوى طبقية ..

وإذا كانت جماعات الباشوات قد اطلقت على نفسها اسم « الحزب » فاننا نقبل هذه التسمية تجاوزا للدلالة على هذا التيار الذى يمثل جماعة المتذمرين من كبار الملاك والتجار والمثقفين .

ثمة شئ آخر هو أن تنظيم الجيش لم يكن معزولا عن الفئات الأخرى . وقد رأينا كيف انسحب عبد الله النديم من جماعة « مصر الفتاة » لينضم إلى جماعة أقرب إلى ميوله واتجاهاته . . تنظيم الجيش ..

---

(١) بلنت ص ١٢٩ .

وعندما يحاول رياض أن يستصدر من الخديو أمراً بنفى النديم يتصدى له على فهمى قائد الحرس الخديو قائلا « أن النديم منا نحن معشر العسكرين وأن لم يحمل سلاح العسكرية ولئن أخذ تموه بغتة من البلاد حافظنا عليه بالأرواح والأجناد »(١) .

ومن المحتمل أن يكون هناك مدنيين غير النديم ..

ثم أنه من الخطأ أن نتصور أن هذين التيارين كانا يعملان فى انفصال تام ..

فثمة علاقات قديمة بعض الشئ .. بين القيادتين ..

فعرابى يتصرف عن طريق على الروبى بمحمود سامى البارودى وبعلى مبارك وهما دستوريان من حزب شريف باشا(٢) .

وعندما سجل التنظيم العسكرى انتصاره على عثمان رفقى .. وعندما انهالت العرائض والوفود من القرى إلى بيت عرابى .. بدأت الجماهير الشعبية تفرض برنامجها ومطالبها على حركة الضباط .. وبدأ عرابى يتحول وبسرعة غريبة وقبل أن يتوقع أى إنسان ، إلى زعيم شعبى لجموع العمد .. والفلاحين والفقراء عموماً ..

وهنا يجب أن نتوقف قليلا .. لنشرح ماذا تعنى بالعمد ..

فالعمد فى أيام عرابى ليسوا عمد عصر سعيد وإسماعيل .. ليسوا كبار الأعيان وممثلو كبار العائلات فهؤلاء قد ارتفعوا إلى مصاف الطبقة المحترمة التى تمركزت فى القاهرة وبنت لنفسها قصورا فيها .. تاركة القرية وإدارة الممتلكات ومناصب العمودية للاتباع وللملاك الأقل غنى ..

---

(١) تاريخ مصر فى هذا العصر .. وهو مخطوط لعبد الله النديم حققه ونشره د. محمد خلف الله تحت اسم « عبدالله النديم » ومذكراته السياسية ، طبعة عام ١٩٥٦ — ص ٥٦ .

(٢) بلنت ص ١٣٤ .

فالعمد أيام عرابى ليسوا كبار الملاك لكنهم متوسطو الملاك .. والفئات الدنيا من كبار الملاك.. ولهؤلاء بطبيعة الحال وضع متميز ومصالح متميزة عن كبار الأعيان .

ولا بد أن عرابى أحس بمنافسة كبار الأعيان له .. ولابد أنه أحس بتساؤلهم من يكون هذا العرابى ؟ .. ولا بد أنه أراد لنفسه أن ينطلق من مجرد المطالبة بحقوق العسكرية إلى المناداة بالمطالب التى أملتها الجماهير الشعبية .

وانطلق النديم — عضو التنظيم العسكرى إلى القرى يحمل معه منشوراً من عرابى يقول فى شجاعة وصراحة وقوة .

« إن الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ولم يكن مقصدها مؤديا الا إلى اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع أراض كثيرة للأجانب ووجود كثير منهم فى إدارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفادحة والسعى فى رفع الأحجار الطبيعية الموجودة فى بوغاز الأسكندرية .. وان سكوتنا واضرابنا عن ذلك يعد من العجز والجبن والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا .. »

ويمضى المنشور ليطالب « بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ليحصل الوطن على الحرية المبتغاه .. »

وفى ختام المنشور — يطلب عرابى « أن يوقعوا على الكتابة المرسلة ليهم وهى الكتابة المقصود بها أن يكون نائبا عنهم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد . » (١)

لكن اقتراب عرابى من أعيان الفلاحين والعمد وتنبهه لمطالبهم كان يعنى بالضرورة اقترابه من الدستوريين التقليديين الذين يضمون كثيراً من أبناء الطبقة الحاكمة المستبدة التى يكرها عرابى والفلاحين ..

---

(١) مصر للمصريين جـ ٤ ص ٩٠ .

وهكذا من أعيان الريف إلى سلطان باشا .. ومن سلطان إلى شريف .. وطوال صيف ١٨٨١ أقام عرابى علاقة وثيقة مع شريف باشا عن طريق سلطان باشا . وكان الاتفاق بينهما واضحا للمطالبة بالدستور واقالة رياض لكن شريف كان يتخذ من عرابى وسيلة للوصول إلى الحكم .. وتم الاتفاق بينهم على أنه عندما تأتى اللحظة المناسبة فان عرابى سوف يستخدم ثقل العسكرية للمطالبة بالدستور .(١)

وهكذا التقى التياران .. امتزجا مع بعضهما البعض كموجتين تلتحمان معا .. فان اندفاعة الجماهير كانت من القوة بحيث دفعت كل القوى إلى الالتصاق معا ..

لكن التنظيم العسكرى كان فى هذه الأثناء الثقل الحقيقى فى المعركة .. فهو الأكثر تنظيما .. وهو الأكثر تمثيلا وارتباطا بالجماهير .. وهو المتحكم فى القوة الضاربة القادرة على الحركة .

وهو فوق كل ذلك التنظيم الذى يضم الزعيم الشجاع والقائد الفعلى .. أحمد عرابى ..

وربما كان إلتقاء التيارين نوعاً من الاحتواء بدأ من جانب شريف وسلطان فى محاولة لامتطاء الموجة وإستخدام عرابى كمخلب قط .

لكنه انتهى بعد شهر واحد على الأكثر إلى استسلام يائس من جانب الأعيان للموجة الثورية العاتية ، فقد اتسعت لموجة الثورية لتشمل كل القوى .. لنجاح كل المقات ولم يعد أمام قادة الحزب الوطنى .. بكل ترددهم .. وبكل كراهيتهم للفلاحين وبكل أنانيتهم إلا أن يحنو الرءوس للعاصفة الثورية .. ولكن إلى حين .

وكانت هناك قوة ثالثة .. هى الخديو توفيق ..

وأعتقد أنه قد آن لنا أن نتحدث عن توفيق قليلا .. ولنترك لبلنت هذه المهمة فهو أقدر الناس على ذلك ..

---

(١) بلنت ص ١٤٤ .

« توفيق إنسان متردد ضعيف الشخصية تربى فى القصر الملكى محتقراً ، فهو ليس سوى ابن واحدة من الجوارى .. وقد تربى فى الحرملك وظل طوال حياته عاجزاً عن أن يخلص نفسه من العادات التى غرست فيه خلال حياته وسط الحريم .. ظل طوال حياته يعانى من الضعف الانثوى الذى اجبره فى كثير من الحالات إلى الرضوخ لإرادة أقوى من ارادته .. لكنه كعادة النساء أيضاً يخضع فى الظاهر محاولا أن يستعيد ما فقده بوسائل ملتوية وتآمرية .. كما أنه كان يعانى من كثير من عادات النساء كالغيرة وحب الانتقام .. ولم يكن توفيق صادقاً أو مخلصاً طوال حياته وما من إنسان وثق فيه إلا وخانه » (١) .

كان توفيق .. بكل هذه الصفات يعانى هو الآخر من تسلط رياض .

كان يحس بالغيرة من نفوذ رياض .. ويحس بالغيرة من ثقة القناصل فى رياض وتمسكهم به .. بل أن توفيق قد سمع شائعات تؤكد أن رياض يسعى لعزله وبضغط من شريف اقتنع توفيق ان عرابى هو السلاح الذى يمكن استخدامه ضد رياض .. وبعدها ما أسهل من أن يتخلص من عرابى نفسه ..

وعن طريق على فهمى قائد فرقة الحرس الأولى اتصل توفيق بحركة العسكريين .

ووصلت إلى عرابى أول رسالة من توفيق .. كانت رسالة شفوية يبلغه فيها على فهمى أن الخديو قال له همسا « انتم ثلاثة جنود (عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى) وأنا معكم نصبح أربعة » (٢)

ويحس رياض أن الجيش أصبح السلاح الحاسم فى أيدى أعدائه .

فى يد شريف المنافس المناور .

وفى يد الخديو الراغب فى ازاحته .

---

(١) بلنت ص ١٢٦ .

(٢) بلنت ص ١٣٤ .

وفى يد عرابى الذى يلهب نيران الثورة فى كل مكان .

وبدأ رياض خطته لتشتيت الجيش .. وأبعاد الفرق الموالية لعرابى عن القاهره وبدأ الجيش يستعد لتوجيه الضربة الثالثة إلى نظام الحكم .. ليطالب باقالة رياض باشا .. وفى ٩ سبتمبر اصطف جنود الجيش خلف عرابى الذى وقف وجها لوجه أمام الخديو شاهرا سيفه ممليا ارادة الشعب ..

ويؤكد نينيت أن توفيق هو الذى أوحى للعرابيين بفكرة المظاهرة العسكرية عن طريق على فهمى(١) .

والأمر المؤكد هو أن التنظيم العسكرى أشعر الجميع أن الحركة ليست موجهة ضد الخديو وانما ضد رياض ..

وسقط رياض .. الضحية الثالثة ..

وحدث تغير كامل فى ميزان القوى ..

فقد انطلقت قوى الشعب بشكل يسبق له مثيل . .

ويصف بلنت ما رآه بنفسه « أن الاشهر الثلاثة التى أعقبت حادثة ٩ سبتمبر المشهورة كانت من أسعد الأوقات التى شهدتها مصر من الوجهة السياسية . . . . والواقع أننى لم أشهد فى الماضى ولن أشهد فى المستقبل شيئاً كهذا الذى رأيته . . كل القوى السياسية . . كل سكان القاهرة اتحدت كلمتهم . وسرت فى مصر رنة الفرح بشكل لم يسبق له مثيل . . كان الناس يحتضنون بعضهم البعض . . فرحين بعهد الحرية الجديد المدهش الذى طلع عليهم على حين فجأة طلوع الفجر أثر ليلة مخيفة طويلة » (٢)

. . ويصف النديم أثر هذا التطور الجديد فيقول :

كنا لانتطق إلا همساً ثم رفعنا الصوت إلى حيث يسمع من يضع أدنه على فم المتكلم ، وما زلنا مجدين على هذا الطريق الخطر حتى أعربت

(١) المرجع السابق ص ١٤٣ .
(٢)تاريخ مصر ص ٢٢٧ .

الجيوش عن ضمائرنا وترجمت الحمية عبارتنا . . ونادى الجند المظفر المنصور بحقوق الأمة . . فنحن الآن ننادى بألسنتنا بصوت يسمعه القاصى والدانى : يموت الاستبداد وتعيش الحرية يعدم المستبد ويبقى جيش الحمية » (٢)

. . ويشعر المستعمرون بالخوف ويكتب مراسل التايمس : « من العبث أن نخفى الحقيقة . أن القائمين بالحركة لا غرض لهم سوى هدم الدخل الأجنبي وإذا جاز القول بأن هذه النية كانت محصورة منذ أسبوعين فقط فى نطاق بعض الضباط فأنها ليست كذلك اليوم . . أن سكان القاهرة والاسكندرية وهم معرفون عادة بعدم إهتمامهم بما يحدث من الأمور يؤيدون عمل الجيش كل التأييد وهم الآن أشد جرأة من غيرهم فى الجهر بأغراضهم » (١)

ويفاجيء الأعيان بالرجل الذى حاولوا إستخدامه كأداة توصلهم الحكم وقد أصبح زعيما قوياً لا يعارض . . ولا يستند إلى الجيش وحده وإنما إلى جماهير الشعب فى القرية والمدينة . . ويحدث استقطاب سريع وحاسم وتشمل الثورة كل الفئات ، الفلاحين .. الجيش– . .المثقفين ..التجار . . الأعيان . .

ولا يبقى بعيداً سوى شريف وسلطان وحفنة ضئيلة جداً . . ويتردد شريف ويبدى كراهيته للثورة منذ الوهلة الأولى ، فما أن يسقط رياض حتى يستأسد ويرفض أن يشكل الوزارة قبل أن يتعهد عرابى بالخضوع له . . وأن يقبل العرابيون التشتيت الذى كان سبباً فى اطاحتهم بحكومة رياض .

ويستخدم شريف حجة سخيفه فهو يقول « أن ترددى فى قبول الرياسة ما كان الا تحاشيا لتأسيس حكومة غير قوية تخيب بها الأمال

---

(١) النديم ص ١٥٢ .

(١) التايمس ٢٧/٩/٨٨١ . نقلا عن المرجع السابق ص ١٦٨ .

ويزيد معها الأشكال فأكون عرضة للملامة بين إخوانى فى الوطن وبين الأجانب ، »

وهكذا منذ اللحظة الأولى بدأ التباين الطبقى واضحاً . . فلكى يصبح شريف قوياً . . يجب أن يكون عرابى ضعيفاً . . ويجب أن يبعد عن الميدان . وأن يقبل التشتيت .

وهكذا يجد العرابيون أنفسهم فى مأزق حقيقيى . . فالوحدة الوطنية مهددة وشريف قادر على التأثير فى البعض . . بل أن رفضه للوزارة يعنى أزمة حقيقية قد تؤدى إلى عودة رياض . .

ويتعهد الضباط بالخضوع مؤكدين بذلك فهما سياسياً عميقاً وقدرة على المناورة . . ويكتب عرابى عريضة إلى شريف . « نلتمس من دولتكم قبول مسند الوزارة . . واعلاناً لصداقتنا وانقيادنا لأوامر الحكومة التى تصدر فى صالحها العمومى . فقد أمضينا هذه العريضة ونحن على يقين أن تقع لدى دولتكم موقع القبول . . أفندم »

ولا يكتفى بذلك بل يستخدم الضغط الجماهيرى على شريف ويقدم الأعيان عريضة عليها ١٦٠٠ توقيع تقول :

« نحن الواضعين أسماءنا علماء ومشايخ وأعيان وعمد مصر واسكندرية والثغور والوجهين البحرى والقبلى لاعتقادنا التام بحسن صفات وغيرة دولتة شريف باشا قد التمسنا منه أن يستلم إدارة إشغال ورئاسة مجلس النظار . . وإظهاراً لصداقتنا التامة ولخلوص نية الجيش نحن ضامنون صدق وصحة التعهدات التى من مقتضاها تمام الانقياد لأوامر دولة شريف باشا » .

وفى نفس الوقت يطالب الموقعون بالبرلمان وبالدستور . هكذا التفت عرابى حول مؤامرة شريف . .

وقبل الضباط التشتيت . . لكن شريف سرعان ما أدرك خطأه بابعاد عرابى القاهرة . . ففى الشرقية يتجول عرابى كما يشاء ويخطب ويجمع

الأنصار ويزداد نفوذاً . . وعاد عرابى إلى القاهرة وكيلا لوزارة الجهادية . .

وإذا كان شريف هو أول من خان الحلف الشعبى فانه لم يكن الأخير . .

فقد كان سلطان باشا هو ثانى المتمردين على هذا الحلف . . فالانتخابات — تجرى ويعقد مجلس النواب ويرأسه سلطان باشا . . ويقدم شريف للبرلمان لائحة بالدستور . . يناقشها المجلس ويوشك أن يقرها لكن إنجلترا وفرنسا تتدخلان باحتجاج استفزازى برفض منح البرلمان الحق فى نظر الميزانية ..

ويسرع شريف بالتراجع ويسرع معه سلطان ...

لكن عرابى يرفض ومن خلفه الجيش والنواب ..

وبعد إجتماع صاخب فى بيت سلطان باشا أعلن الجميع على أثره تأييدهم لموقف عرابى واستنكارهم لتراجع شريف ..ومطالبتهم باقالته ..

أسرع مالت .. ومراسل التيمس ومراسل روتير ليبرق كل منهم إلى مرءوسيه لندن « أن عرابى لم يناور كما ناور مع شريف فى المرة السابقة لكنه شهر سيفه فى وجه سلطان وهدده باطاحة رقبته إذا لم يوافق .. »

ويعقد سلطان مؤتمراً صحفياً لينفى الواقعة .. لكنه ينتهز الفرصة ليحدد موقفه من الثورة ومن عرابى ..

« أحمد عرابى ابن لى .. أنه يعرف واجبه ويترك لى واجبى أن مكانه هو وزارة الدفاع أما مكانى فهو البرلمان .. أن أقل واحد من ممثلى الشعب فى البرلمان قادر على التعبير عن رأيه أكثر من أى جندى مهما كانت عظمته »(١) وهكذا أسفر سلطان عن وجهه وأصبح بقاؤه فى معسكر الوطنيين مسألة شكلية بحتة ..

---

(١) بلنت ص ٢٠٤ .

وهكذا أيضاً عبر سلطان عن رأى طبقته فى الجيش الذى استخدموه وسيلة للاطاحة بعدوهم رياض وأداة للحصول على البرلمان والدستور .

وعلى هذا التناقض يلعب الأنجليز ..

ويكتب كلفن إلى وزارة الخارجية الأنجليزية فيقول :

الجيش ثمل بما ناله من نصر ويتخيل الضباط أن مهمتهم هى تحقيق حرية مصر أما الأعيان فانهم ينكرون على الضباط الحق فى التدخل فى المسألة » .

يكتب مستر كومسون الذى حل موقتاً محل مالت .

« ان الأمانى الطويلة العريضة عن توطيد العدالة والحرية الدستورية كانت خاتمتها إحلال إرادة الجيش محل السلطة الشرعية .. لكن المهم هو أن كثير من النواب ممن لهم مصالح فى البلاد أخذوا ينسلخون الآن من الائتلاف الذى تعجلوا فى عقده مع الحزب العسكرى » (١)

هكذا عاد التياران من جديد إلى الانفصال .. لكن بعد أن أصبح الشعب أكثر وحدة وأكثر قوة .. وأصبح المعادون له مجرد حفنة من الخونة .

---

(١) كرومر . مصر الحديثة ج ١ ص ٢٠٦ .

٣

« منذ البداية كان عرابى ينادى بالمساواة بين الطبقات وباحترام الفلاح باعتباره العنصر الرئيسى فى القومية المصرية . وكان إيمان عرابى بالفلاح هو الشيء الأساسى الذى يميزه عن بقية المنادين بالإصلاح فى عصره .. إن حركة عرابى هى فى جوهرها حركة قومية وشعبية » .

بلنت

وبرنامجان أيضاً . .

لقد أكدنا من قبل أن التقاليد الحزبية - بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة . لم تكن معروفة فى صفوف هذين التيارين السياسيين ،

كان هناك ثمه ارتباط . . وقسم على السيف والمصحف . . وسرية تامة . . ومطالبات تتحدد وفقا لتطور الاحداث . . لكن لم يكن هناك برنامج محدد يوضح اهداف هذه الجماعة أو تلك رغم وجود شعارات وأهداف عامة تحدد الطابع العام لبرنامج هؤلاء الذين يرددونها .

ومن هنا فإنه يتحتم علينا أن نتتبع تصرفات القادة . . وتصريحاتهم ومواقفهم . . ومحاولين أن نستخلص منها ما يوضح طبيعة برنامج هذه الجماعة أو تلك .

لكن ثمة ملاحظة ضرورية قبل ان نبدأ . هى ان الضباط العسكريين كانوا أقرب إلى التنظيم الحزبى أكثر من غيرهم ٠٠ وكانوا جماعة شديدة التماسك بحكم الطابع العسكرى والسرية الشديدة والزعامة القومية التى تقودهم وأهم من هذا كله بحكم تقارب أو وحدة التمثيل الطبقى ٠٠ فهم جميعاً أبناء فلاحين فقراء ٠ ٠ دخلوا العسكرية من باب القرعة الإجبارية أنفاراً ٠

بينما كان الحزب الوطنى يمثل تيارات متعددة بل ومتصاربة فى بعض الوقت ..

شريف باشا وعثمان كنج باشا وعمر لطفى باشا وآخرين من الأتراك والشراكسة الدستوريين ٠ ٠

سلطان باشا والشريعى باشا وغيرهم من الإقطاعيين المصريين ٠

وعلى باشا مبارك وعشرات غيره من كبار الموظفين المصريين وهم فى حقيقة الأمر من أبناء الفلاحين لكنهم ارتفعوا بحكم وظائفهم الكبيرة والإنعامات السامية وزواجهم من شركسيات أو تركيات إلى طبقة كبار الأعيان..

.. ثم هناك محمد عبده والشيخ خليل الهجرسى وغيرهم من قادة حركة التقدم فى الأزهر ..

وهناك بقايا « مصر الفتاة » وتيار جمال الأفغانى و محمد عبده .. وسليم النقاش وسعد زغلول وأديب إسحق ..

هناك إذن تيارات مختلفة بل ومتضاربة لكنها تجمعت وبسرعة غريبة تحت هذه الراية التى ارتفعت فجأة فى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ يوم توزيع أول بيان سرى للحزب ..

كانت كل هذه القوى تغلى .. وكان إصدار بيان هكذا كفيل بتجميعها كلها تحت رايته ..

ثم كانت انتصارات التنظيم العسكرى المتتالية . . وزعامة عرابى الملهمة وحشود الفلاحين . . وامتزاج التيارين معاً . . وتجرى بسرعة عمليات استقطاب واسعة النطاق ونعزل قمة الإقطاع وحدها .

ثم يحدث . الصدام الحقيقى .. ويقف الفلاحون وجهاً لوجه أمام الخديو ويعلن عرابى أهدافه فى الحرية والمساواة والإخاء .. وترتفع حرار الثورة ويبرز الفارق واضحاً بين الثورية الحقة وبين الإصلاح والاعتدال ، ومرة أخرى يحدث استقطاب جديد ..

وهكذا فإنه يتعين علينا أن ننظر إلى التصريحات والمطالبات التى نادى بها أقطاب الحزب الوطنى نظرة حذرة حتى لا نخلط بين المواقع المتشابكة والمتمايزة فى وقت واحد :

ولنبدأ من أول الخيط ..

كان بيان ٤ نوفمبر ١٨٧٩ أول إرهاصة سياسية للحركة الوطنية . لكنها كانت إرهاصة الأغنياء الباحثين عن السلطة ، ولم تكن جموع الثورة قد احتشدت بعد حول راية الحزب مؤثرة فيه دافعة به إلى ميدان النضال الحقيقى ..

وينحصر برنامج ٤ نوفمبر فى أربعة مطالب :

١ — أن تعاد إلى الحكومة المصرية جميع الأملاك المسماه بالخديوية .

— أن يلغى النص الخاص بتخصيص إيرادات السكة الحديدية للقرض الممتاز .

٣ — توحيد الديون فى دين واحد مضمون بمال الأمة والبلاد بفائدة ٤٪

٤ — تقام إدارة مراقبة وطنية خاصة مؤقتة يكون فيها ٣ أجانب تعينهم الدول وتقرهم الحكومة(١) .

ثم لاشئ بعد ذلك .. مجرد محاورة مع الدائنين الأجانب ومحاولة لتنظيم الدين وإبعاد السيطرة الأجنبية .

لكن التاريخ يعرف شيئاً آخر اسمه « برنامج الحزب الوطنى » ..

وكثير من المؤرخين يمنحون هذه الوثيقة صفة البرنامج فعلا .. والرافعى يقول إن بلنت « تلقاها عن جماعة الزعماء منهم محمد عبده ومحمود باشا سامى وعرابى باشا » .

لكن بلنت نفسه يحكى رواية أخرى .

فبلنت كان يحاول بطريقته الخاصة وبدافع من إخلاصه أن يجد لغة للتفاهم بين القوى الوطنية وبين الحكومة الإنجليزية وبهذا الهدف .. ومن أجل طمأنة جلادستون وإبعاد أية ظنون عن تعصب أو ثورية القادة الوطنيين ، بهذا

---

(١) الرافعى ص ٧٢ .

الهدف .. وليس من أجل أى شىء آخر .. اقترح بلنت إعداد هذه الوثيقة لإرسالها إلى جلادستون . فهو يعتقد « أن جلادستون لو عرف حقيقة الأمانى الوطنية بطريقة ذات صبغة رسمية فإنه حتماً سوف يتأثر بها : وتحدثت فى ذلك مع مستر مالت فتحمس لهذه الفكرة وقال إنها مفيدة ، وهكذا وبالتعاون مع الشيخ محمد عبده وغيره من الزعماء الدينيين أملينا على صابونجى بياناً يتضمن مجمل آراء الحزب الوطنى . وأخذ محمد عبده إلى محمود باشا سامى الذى كان قد أصبح وزيراً للحربية مرة أخرى وحصل على موافقته عليه وقد عرض البيان بعد ذلك على عرابى ووافق عليه. وبعد ذلك وبالاتفاق مع مالت قمت بإرسال هذا البيان إلى جلادستون موضحاً له كافة جوانب الموقف وداعياً أن يساند هذه القوى . واختتمت رسالتى إليه قائلا « إننى لا أستطيع أن أفهم كيف تحارب مثل هذه المبادئ من حكومة الأحرار الإنجليز .. إننى أذكر ياسيدى أنك قلت لى يوماً أنك تعتقد أن أمم الشرق لن تستطيع أن تنهض ما لم تستعد إرادتها القومية المفقودة وها هى إرادة مصر تتحرك وتناضل لتجد الكلمات التى تعبر بها عن نفسها حتى تستطيع أن تلحق بأوروبا .. » »

ويمضى بلنت ليروى كيف أنه أرسل البيان إلى التيمس لنشره رغم معارضة مالت الذى كان يخشى من رد الفعل فى القسطنطينية .. وكيف أن وليام جريجورى مراسل التيمس فى القاهرة هو الذى أوحى إليه بأهمية النشر كوسيلة لإقناع داونتج ستريت ويصل البيان إلى شنرى رئيس تحرير التيمس الذى « رحب بنرنامجنا » هكذا قال بلنت بالنص ونشره قائلا « أنه قد تلقاه من عرابى شخصياً .. وهذا خطأ ، الأمر الذى مكن مالت وهو العليم بحقائق المسألة من أن يدفع مراسل رويتر إلى التشكيك فى رسمية هذه الوثيقة » (١) .

---

(١) بلنت ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ .

هذه الوثيقة إذن ليست برنامجاً لأحد .

لكنها بالدقة محاولة لإثبات حسن نوايا الزعامة المصرية أمام الحكام الإنجليز . وهى ثانياً — تعبر إن عبرت عن محاولة الجناح الشديد الاعتدال فى الحزب الوطنى للتعبير عن نفسه بوسيلة تكفل رضاء الحكام الإنجليز عنه، وهى ثالثاً — وهذا هو الأهم محاولة لتقييد عرابى ببرنامج لا يعبر عن حقيقة أفكاره .

والآن لنعرض ملخصاً لهذه الوثيقة التى أملاها بلنت ومحمد عبده على صابونجى فى ١٨ ديسمبر ١٨٨١ .. ثم نشرت فى التايمس فى أول يناير ١٨٨٢ ..

١ — يرى الحزب الوطنى المحافظة على الروابط الودية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالى واتخاذ هذه الروابط ركناً يستند عليه فى عمله ويعترف بالسلطان عبد الحميد كمتبوع و خليفة وإمام للمسلمين ولايريد تبديل هذه الصلات والروابط مادامت الدولة العليا فى الوجود ..

٢ — يخضع الحزب للجناب الخديوى الحالى ما دامت أحكامه جارية وفقاً للعدل والقانون حسب ما وعد المصريين فى شهر سبتمبر ١٨٨١ . وقد قرن رجاله هذا الخضوع بالعزم الأكيد على عدم عودة الاستبداد والأحكام الظالمة التى أورثت مصر الذل . وبالإلحاح على الحضرة الخديوية بتنفيذ ما وعدت به من الحكم النيابى وإطلاق عنان الحرية للمصريين .

٣ — رجال الحزب يعترفون تماماً بفضل فرنسا وإنجلترا اللتين خدمتا مصر خدمة صادقة ويعترفون باستمرار المراقبة الأوروبية كضرورة اقتضتها الحالة المالية وضمانة لتقدم البلاد . ويعترفون صراحة بالديون الأجنبية حرصاً على شرف الأمة .. لكنهم لا يخفى عليهم وجود شىء من الخلل الحاصل فى المراقبة فبعض المستخدمين فى قلم المراقبة لا يقدرون على القيام بوظائفهم ولا يراعون حق الشرف والاستقامة . وهم يتعجبون من إعفاء الأجانب من الضرائب وعدم

خضوعهم لقانون البلاد مع تمتعهم بخيرها وإقامتهم فيها ولكنهم لا يريدون مداركة هذا الإصلاح بقوة أو جفوة

٤ – رجال الحزب الوطنى يبتعدون عن الأخلاط الذين شأنهم إحداث القلاقل فى البلاد إما لمصلحة شخصية أو خدمة للأجانب الذين يسوؤهم استقلال مصر .. والمصريون وقد عرفوا الآن معنى الحرية الحقيقية عقدوا خناصرهم على استكمال تربيتهم القومية وهم يرجون أن يكون ذلك بواسطة مجلس النواب (الذى انعقد الآن) وبواسطة حرية المطبوعات بطريقة ملائمة وبتعميم التعليم ونمو المعارف .

٥ – الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب .. وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم لغتها منضم إليه .

٦ – آمال الحزب معقودة على إصلاح البلاد مادياً وأدبياً ولا يكون ذلك إلا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق المعارف وإطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة الأمة (١) .

– هكذا يناور البيان بين كل القوى . محاولا أن يثبت ولاءه لها جميعاً .. للسلطان والخديو والدول الأجنبية ومحاولا فى نفس الوقت أن يصوغ لنفسه مطالب معقولة ومقبولة من جانب هذه القوى الثلاث .

والذى نريد أن نؤكده هو أن الحلف القائم فى ذلك الحين بين الحزب الوطنى والتنظيم العسكرى لم يكن ليعنى مطلقاً اتحاد الآراء حول هذا البرنامج المتخلف ..

فالحركة الثورية العارمة التى ألهبتها وقفة الجيش فى ٩ سبتمبر وأقالة رياض .. وإنشاء مجلس النواب .. واندفاعة الفلاحين الجارفة للمطالبة

---

(١) النص الكامل . الرافعى ص ١٤٤ وما بعدها .

بحقوقهم .. هذه الحركة أخافت المعتدلين فى الحزب الوطنى .. والمتوجسين من شعبية عرابى ومن اندفاعه . وهكذا كان للبيان محاولة لتقييد عرابى وتنظيمه وجماهيره ببرنامج معتدل .

لكن لعرابى أفكاره الخاصة التى تعبر عن المصالح الطبقية لتنظيمه وعن ارتباطاته الوثيقة وتفاعله مع جماهير الشعب .. وخصوصاً الفلاحين ..

وإذا كانت هذه الوثيقة قد كتبت فى ١٨ ديسمبر ..

فإن عرابى يتحدث قبل ذلك التاريخ بستة أيام فقط أى فى ١٢ ديسمبر إلى كل من بلنت وجريجورى عن أهدافه وبرنامجه .

ويسرع بلنت ليكتب إلى جلادستون فى ٢٠ ديسمبر عام ١٨٨١ ..

« إن الأفكار التى عبر عنها عرابى ليست مجرد ترديد للاراء الأوربية الحديثة لكنها أفكار مبنية على أساس معرفة التاريخ ومن اتجاه حر أصيل موروث من النزعات الإسلامية المتحررة والذى لاشك فيه أن الجيش والشعب يثقون بشكل كامل فى هذا الرجل » ..

وكان عرابى يتكلم فى تواضع « إن الظروف هى التى جعلت من الجيش ممثلا للشعب وحارساً لأمانيه .. وسيبقى الجيش كذلك طالما ظل الشعب فى حاجة إليه . والجيش هو روح الحركة الوطنية وهو القوة الوحيدة القادرة فى الوقت الحاضر على حماية المصريين من الحكام الأتراك ومن محاولتهم لفرض سيطرتهم من جديد .. لقد كسبنا للشعب حقه فى أن يقول كلمته داخل مجلس الأعيان » .

لكن عرابى لايثق فى الأعيان .. ولهذا يستمر قائلا لكننا نحتفظ بمواقفنا لكى نحفظ للشعب هذا الحق ونصونه من أى عدوان أو انتقاص . إن موقفنا هو نفس موقف العرب الذين سألهم الخليفة عمر هل يرون أنه يسير فى طريق العدل فأجابوه : ياأمير المؤمنين إنك تنهج طريق العدل والخير وذلك يثلج قلوبنا ، لكننا لو رأينا فيك عوجاً لقومناه بحد السيف »

ويعلن بلنت قائلا : « إنها كلمات مباشرة تعرف الهدف » .

وهى بالفعل كذلك فعرابى يعلن بوضوح للأعيان أن الجيش سيظل يرقبهم ويساندهم طالما هم يسيرون فى الطريق الصحيح . . لكن سيوف الجيش ستظل باستمرار قادرة على أن تقوم أى اعوجاج فى سلوكهم .

ولا يمضى سوى ثلاثة أو أربعة أسابيع ..

ويكون شريف قد تهاوى وطرد من الحكم .

والبارودى شكل وزارة الثورة .

وعرابى وزيراً للدفاع فيها .

والأعيان يرتعبون من الخوف فالمارد قد خرج من القمقم ليملى إرادة الشعب .. إرادة الفلاحين ..

ويجد عرابى الوقت ملائماً تماماً ليمزق هذا القيد الذى حاول المعتدلون أن يلفوه حول يديه تحت اسم برنامج الحزب الوطنى ..

ويجد عرابى أن الوقت قد حان .. وأن توازن القوى يسمح بأن يعلن خطته للإصلاح وآماله وبرنامج حكومته .

.. والإصلاحات العملية التى تنوى حكومتهم القيام بها . هكذا قال بالنص لبلنت :

• إلغاء السخرة التى يفرضها الباشاوات الأتراك على الفلاحين .

• القضاء على احتكار الباشوات لمياه النيل وتحكمهم فيها :

• حماية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين ينشبون أظافرهم فى أجساد الفلاحين مستعينين بالمحاكم المختلطة .

• إصلاح النظام القضائى الملىء بالفساد .

• كفالة حق التعليم للرجال والنساء على السواء .

• كفالة حرية الانتخابات للبرلمان الجديد . .

• إلغاء الرق . . وحول هذه النقط يتكلم عرابى كثيراً مشيراً إلى تحجج الأجانب بأن منح السلطة للمسلمين سوف يعنى ازدهار تجارة العبيد من جديد .

ويقول : « إن الذين يملكون العبيد والذين يرغبون فى استمرار الرق هم الأمراء والباشوات الأغنياء وحدهم وهؤلاء هم الذين تناضل حركة الفلاحين من أجل التخلص من تسلطهم . إن مبادئ الحرية والإصلاح تقضى بأن الناس جميعاً متساوون بغض النظر عن الجنس أو اللون أو العقيدة وأن استمرار الرق يتنافى تماماً مع هذه المبادئ » (١) .

والآن لنتأمل هذا البرنامج .. ولنر الفارق الضخم بينه وبين برنامج المعتدلين .

لنتأمل البرنامج الفلاحى الذى يعكس أولا وقبل كل شىء مطالب الفلاحين الملحة ويعبر عن أمانى الوطن والشعب بأسلوب غاية التقدم ..

ولنتأمل عرابى وهو يؤكد أن « حركة الفلاحين — هكذا بالنص — تناضل من أجل التخلص من تسلط الخديوى والأمراء والباشوات الاغنياء ..

ولم يكن برنامج التنظيم العسكرى مجرد شعارات بلا تطبيق . بل إن الخطوات العملية للثورة قد اثبتت أن عرابى كان يعنى ما يقول .. وأكثر . .

فبالنسبة لمشكلة الرقيق بدأت حملة جماهيرية لتكوين جمعية سميت « جمعية الأحرار السودانيين » بهدف مساعدة الأرقاء المحررين وخلق مجال للتعاون والتآلف بينهم وبين المصريين . .

ويكتب مراسل التيمس ليقول : « نشرت مجله الطائف مقالا عن الرقيق تقول أن السودانين والمصريين قد كونوا معاً جمعية لتوفر للارقاء الذين تحرروا عملا وتقدم لهم المعونات . . وقد نالت هذه المسألة تأييدا قوياً حين تولاها عبد الله النديم خطيب الثورة الذائع الصيت والرجل الثانى بعد عرابى » (١) .

---

(١) بلنت ص ٢١٠ .

(١) التيمس ٥/٤/١٨٨٢ نقلا عن كتاب عبد الله النديم ص ١٨٤ .

ويواصل عرابي مراسلاته مع بلنت مقدماً مع كل تطور جديد للأحداث موقفاً ثورياً أصيلا . .

ففي ١ أبريل ١٨٨٢ يكتب :

« إن أي إنجليزي حر لابد له أن يؤيد هؤلاء الذين يسعون لتحقيق الاستقلال لوطنهم ويسعون للإصلاح وإقامة حكومة عادلة . . إن هدفنا الوحيد هو إنقاذ وطننا من ذل العبودية والظلم والجهل وأن نرفع شعبنا إلى المستوى الذي يمكنه من مقاومة أية محاولة لإعادته إلى ظلمات الماضي » .

وفي ٦ أبريل ١٨٨٢ يكتب رسالة أخرى :

« لقد عقدنا العزم على أن نبذل غاية الجهد لتتبوأ أمتنا مكاناً بين الأمم المتحضرة وذلك عن طريق نشر المعارف في كل انحاء البلاد والحفاظ على الوحدة والنظام وكفالة العدل لكل انسان ولاشيء يستطيع أن يجبرنا على التراجع خطوة واحدة عن أهدافنا.. لا التهديد ولا الخداع ولا شيء على وجه الأرض بقادر على أن يحرفنا عن هذه الأهداف » (١) وفي ١٤ يونيو عام ١٨٨٢ يقول عرابي لصابونجي

« أن الأوربيين يهددون بالعدوان علينا . حسنا دعهم يفعلون ذلك لكنهم بمجرد اطلاق رصاصة واحدة علينا سوف يفقدون كل قروضهم الـ٨٠ مليوناً التي تشكل الدين العام والـ ٢٠ مليونا التي اقترضها الفلاحون من أصحاب البنوك . . أن العدوان سوف يجعلنا في حل من الامتناع عن الدفع (٢) .

والنديم داعية الثورة . . وجهاز اعلامها المتنقل واحد أفراد العسكرية وإن لم يحمل السلاح . . كما قال على فهمي يمثل هو الآخر الجانب الثوري لفكر الحركة العرابية وكان أحد العناصر التي أكدت هذا الفكر ودعمته .

والنديم متحدثاً باسم الثورة يهاجم « حياة البذخ التي يحياها الأغنياء . .

---

(١) بلنت ص ٢٤٤ .

(٢) بلنت ص ٣٤٠ .

والحكام الذين يرفلون ثياب العز ويتمتعون بأسباب المدنية وينعمون بالمراقص - والغانيات والمغنيات وينفقون الأموال عن اليمن وعن الشمال وما هى فى الحقيقة الا أموالهم هم . أموال الفلاحين البؤساء . . الذين هم أساس النعمة وأسبابها يجمعونها بعرقهم ودمائهم من فلاحة أرض وتربية الماشية ليأخذها الأغنياء ويبعثرونها على ملاذهم ومتعهم » (١) .

وفى تحد بالغ يوجه النديم حديثه إلى الأعيان قائلا :

« تعال فانظر إلى سلم رفعتك ومعدن حياتك ونبع ثروتك أخيك - أستغفر الله - بل خادمك الفلاح . انظر إلى ثوبه المهلهل ولبدته التى لا تستر يافوخه ورغيفه الذى لا تكسره قوتك ، ومشه الذى تعاف النظر إليه . . انظر إليه وهو يقطع يومه فى عذاب وعمل . . وهو صاحب الفضل عليك وأنت لا تنظره إلا بعين المقت ولا تعامله إلا بيد الأهانة ولسان السب » .

ويمضى النديم ليسجل فى حدة وصرامة ملامح الصراع الطبقى بين العرابيين وبين الجناح الآخر من الحلف .. ويستخدم طريقته المعهودة فى شكل حوار بين التلميذ والأستاذ يتناول فيه مسألة الشورى التى وصفها فى مقدمة الحوار بأنها « غرس الأفكار فى أرض التبادل وسقيها بماء الحرية وخدمتها الاعتدال لتثبت العدل وتزهر الحق وتثمر العمران » .

لكن « الشورى » كأى شعار للثورة كانت تحمل معنيين فالاغنياء يرون أن - « الشورى » تعنى وصولهم هم وحدهم إلى الحكم والى البرلمان . . أما الثورة فقد كان لها رأى آخر . . ولنتتبع الحوار :

التلميذ : وهل يوجد فى وطننا من فيه أهلية لذلك أو جامع لهذه الخصال غير الأغنياء والوزراء ؟

النديم : لا يخفاك أن الوطن فيه الذكى والبليد والغبى والنبيه والغنى والفقير والأمير والحقير فإن كان الانتخاب قاصراً على الأغنياء دون الأذكياء كان مجلس النواب وبالا على الشعب والوطن .

التلميذ : من أين يأتى الوبال والأغنياء هم أهل الوطن الحائزين على الرتب العالية وهم أدرى بمال الوطن وصالح الموطنين .

---

(١) التنكيت والتبكيت ١٨٨١/٨/١٥ . نقلا عن النديم ص ١٢٦ وما بعدها .

النديم : لايخفاك أن ابن الغنى مولع بالاستبداد والاستعباد فهو يميل إلى استخدام الفقراء بلا مقابل وضرب الضعفاء من غير أن يعارض أو يحاكم وهذا بعينه هو الاستبداد المضر بالشعب .

ثم إن أباه إن كان من حكام البلاد فقد أدرك الثروة بهب الفلاح وظلمه فإن أغلب الحكام متسلطون على المحكومين تسليط الهواء على النار . . ومن كانت هذه فعال أبيه كان بعيداً عن الحق أجنبياً من الأنصاف لايميل إلى المساواة ولا يعترف للفقير بحق معه فى الوجود . فوجود مثله فى مجلس النواب علة لزيادة هلاك الشعب فيشرعون من القوانين مايضمن مصالحهم ليضعفوا بذلك حدة أذهان الفقراء ويحبسوا الثروة لأنفسهم .

التلميذ : وإذا كان من أولاد الأتراك الذين نالوا مناصب الرئاسات الدولة .

النديم : لاتحكم على الرؤساء الأتراك إلا بعد معرفة أسباب ثروتهم . . ومن هذا القسم من لم ير الريف ولا يعرفه فكيف يكون نائباً .. وقد يكون فيهم كثيراً من أهل الخبرة والدراية .. لكن حبهم لذاتهم يعطل كثيراً من المنفعة ويجلب كثيراً من الضرر .. ووجودهم بالمجلس يجعله لعبة يديرونها كيف شاءوا :

التلميذ : وهل يحتمل الشعب إطلاق حرية الأفكار .

النديم : نعم يحتملونها ويحفظونها ويسيرون بها فى طريق يعز على غيرهم الوصول اليها ولكن بعدم تسلط الطبقية على المجلس بل تشكيله من جميع الطبقات : نبهاء ومثقفين وأتراك وأغنياء وعلماء وعمال وأعيان » (١) .

إلى هذا الحد كان النديم صريحاً ..

وإلى هذا الحد ن الصراع الطبقى محتدماً . . وليست كلمات النديم

---

(١) التنكيت . التبكيت ١٨/٩/٨١، ١ نقلا عن النديم ص ١٥٥ وما بعدها .

بحاجة إلى تعليق فقط أريد أن أنبه القارئ إلى حديثه عن مصدر ثروة الأغنياء وعن الفهم الطبقى لفكرة الحرية. . وعن استخدامه للفظ تسلط الطبقية . . وتمثيل جميع الطبقات ..

وإلى هذا الحد ويصاب الأغنياء بالذعر والفزع . . وترتفع حرارة الصراع الطبقى داخل الحلف الوطنى . . ويعلن الأغنياء فى حزم رفضهم لبرنامج العرابيين ..

ويتقدم خطيبهم ليعلن رفضهم لأية فكرة عن المساواة بالفلاحين بل لينقد الأعيان الذين انحازوا إلى عرابى فى شدة وقسوة ..

يتقدم محمد عبده فى حفل إقامة الحزب الوطنى فى ١٨٨٢/٢/١٣ ليعلن فى صراحة ووضوح برنامج الثورة المضادة . . ليرفض أى مساس بحقوق الأغنياء وأى اتجاه نحو الفلاحين .. ويقول .

« إن المعهود فى سير الأمم وسنن الاجتماع القيام على الحكومة الاستبدادية وتغيير سلطتها وإلزامها بالمساواة بين الرعية إنما يكون من الطبقة الوسطى والدنيا إذا نشأ فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأى عام . . وإنما لم يعهد فى أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون بمساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم – واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم فى ذلك .. فكيف حصل فى هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟ هل تغيرت سنة الله فى الخلق ؟ أم بلغت فيكم الفضيلة حداً لم يبلغ إليه أحد من العالمين حتى رضيتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم أم أنكم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعملون مالا تعلمون ؟ .

هكذا وفى صراحة تفوق كل حد .. يقول محمد عبده إن الثورة لم تقم ضد الاستبداد ولم تناد بالشورى إلا لكى تحقق مصالح الخواص والأغنياء ورجال الحكومة . ويرفض بصراحة بالغة الحد أيضاً المساواة بالصعاليك ويتهكم فى سخرية على هؤلاء الذين ينادون بالمساواة مخالفين بذلك سنن الحياة وسائرين بذلك إلى حيث لا يدرون ..

وثمة خلاف آخر .. حول شكل الحكم .. فالعرابيون يفضلون الجمهورية ويسعون فى حذر من أجل تحقيقها ففى جلسة بين زعمائهم حضرها بلنت يدور نقاش حول شكل الحكم الذى يفضلونه ويقول بلنت « لقد أعربوا عن تجنيدهم للنظام الجمهورى وقد ظل محمود باشا سامى يعدد لى مزايا إقامة حكومة جمهورية فى مصر وأكد لى أننا نريد منذ بداية حركتنا أن نحول مصر إلى جمهورية مثل سويسرا لكننا وجدنا أن بعض العلماء والمشايخ يرفضون هذه الفكرة فهى شئ جديد على مجتمعنا .. لكننا مع ذلك سوف نسعى قدر ما نستطيع كى نرى بأعيننا قبل أن تحدث حكومة جمهورية مصرية ويحاول عبد الله النديم أن يعد أذهان الجيل الجديد لذلك » (١)

وفى ١٠ مايو ١٨٨٢ ابرق ستنكس فرنسا إلى وزير الخارجية الفرنسية يقول « إنهم حكومة ثورية .. يرغبون فى خلع الخديو .. وعندما اقترح أحدهم على عرابى اسم حليم باشا صاح غاضباً إننا يجب أن نتخلص من أسرة محمد على كلها » (٢) .

والمهم فى ذلك كله أن برنامج العرابيين لم يكن حبراً على ورق .. بل إنهم بمجرد وصولهم إلى السلطة — رغم وجود الخديو — قد شرعوا بالفعل فى تحقيق هذا البرنامج الغاية فى الثورية ..

فالحكومة الجديدة تلغى السخرة وتمنع استخدام الكرباج الأمر الذى يحدث فى الريف هزة عميقة الأثر مما دفع مالت القنصل الإنجليزى إلى أن يكتب فى ذلك إلى حكومته « لقد تبين أن إلغاء استخدام الكرباج قد سلب السلطة الشرعية من كل حول وطول وصار الفلاحون فى حالة تمرد دائم »

وتتخذ الوزارة العرابية موقف الحزم من الرقابة الثنائية بشكل يدفع مالت

---

(١) بلنت ص ٣٤٤ — ٣٤٥ — ٣٤٧ .

(٢) بلنت ص ٢٦٤ .

إلى أن يكتب مرة أخرى « أشك فى إمكان استمرار الرقابة بعد أن اصبحت حبرا على ورق » (١) .

وطلب عرابى ترقية عمومية للضباط المصريين ووافق الخديو . . وصدر قانون المعاشات لرجال العسكرية .. وبحثت الوزارة مسألة تخفيض الأسعار . وأنشاء خزان للمياه فى أسوان .

ويصدر قانون بتعديل لأئحة مجلس النواب وتتضمن اللائحة الجديدة نصا غاية فى الخطورة يقول :

م ٣٢ ترسل الميزانية إلى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لأعضاء مجلس النظار ورئيسه لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروا بالاتفاق أو بالأكثرية (٢) .

وهكذا يحسم الصراع الطويل الأمد حول أحقية النواب فى مناقشة الميزانية

وعندما تلتهب الثورة .. ويهرب الخديو إلى أحضان الأسطول الإنجليزى وتبدأ المعركة الحقيقية ويشمل الفلاحون حركتهم لتطبيق ما نادى به عرابى ضد الباشوات الأتراك وضد المرابين الأجانب فتكون حركة ثورية بالفعل استخدم فيها الفلاحون — ولأول مرة فى تاريخ مصر — العنف الثورى فى مواجهة الإعداء الطبقيين .

ويبدأ الفلاحون فى تصفية الحساب مع المرابين الأجانب . . وإذا كان المرابى قد امتص دماء الفلاحين وانتهز فرصة التحكم الأجنبى ليحصل منهم على كمبيالات غاية فى القسوة .. كان المد الثورى يصل إلى حد قيام الفلاحين باسترداد هذه الكمبيالات عنوه .

---

(١) روزنشتين المرجع السابق ص ٣٧٩ .
(٢) سليم نقاش ج ٤ ص ١١٧ .

ويفزع مستر كارترايت نائب القنصل الإنجليزى فيرسل من الاسكندرية فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٨٢ ليخبر وزير خارجيته أن الفلاحين يهاجمون الأجانب وينتزعون منهم الكمبيالات التى تثبت ما عليهم من ديون ويقول « أن خبرا رسمياً ورد من الحكومة يقول أن هناك فى ناحية بنها قتيل يونانى وأن الباعث على قتله تمنعه من إعطاء الفلاحين سنداتهم التى له بمقتضاها دين عليهم واجب الأداء » (١) .

وثمة قصة أخرى يرويها سليم نقاش . . « طلب عرابى معونات من الشعب للجيش على أن تخصم من الضرائب المستحقة عليهم وكان المديرون يفرضون الإعانة المطلوبة على معدل قيمة الفدان وقد عهدوا – بذلك إلى المشايخ فكانوا يظلمون أصحاب الأبعاديات من الأتراك والشراكسة ومن ينتمى إليهم وكان بعض المشايخ يقولون للمعتذر أو طالب المهلة هل أتيت من تركيا بلادك بأطيان ، إنما هذه أطيان القطر ونحن أبناء الوطن لايحق لغيرنا أن ينتفع بها ؟ أتيتمونا فقراء لاتملكون أرضا ولا فلسا فصرتم الآن أصحاب أراض وأملاك تحرموننا من خيرها .

وكان بعضهم لايكتفى بمثل هذا الكلام بل كانوا يعمدون إلى الأرض ويقتسمونها بالفعل قائلين هذه القطعة لك وهذه لى . . بل يقولون لصاحبها أخرج من البلاد كما جئتها فكان أصحاب الأراضى يزدادون خوفا وحسبانا لبلاء أعظم فانقطع كثيرون منهم عن التردد إلى أراضيهم ولزموا منازلهم واستمرت هذه الحالة جارية من إبتداء شهر رمضان إلى انتهائه وهى مدة قضاها بعض أصحاب الأراضى فى معاناة المتاعب وتحمل الذل والهوان (٢)

وهكذا ولأول مرة فى تاريخ مصر . . يشكو الباشوات الأتراك من « ظلم » الفلاحين .. ويتحدثون عن معاناتهم للمتاعب وتحملهم للذل والهوان

---

(١) المرجع السابق جـ ٥ ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق جـ ٥ ص ١٤٩ .

ومع هذا الالتهاب الذى شمل حركة الفلاحين . .

مع هذا التحول طرأ على المعركة .. والعنف الثورى الذى يوجه لاضد الإنجليز فحسب إنما ضد الطبقات المتعاونة معهم . . ضد المرابين الأجانب والباشوات الأتراك . . مع معاناة الباشوات الأتراك « للذل والهوان » على أيدى الفلاحين .. كان المعتدلون يهتزون بشدة ويحاولون الإفلات من معسكر الثورة .. إلى المعسكر الآن ..

والحقيقة أن الكثيرين من هؤلاء المعتدلين كانوا فى الفترة الأخيرة من الثورة .. أشبه بالأسرى ..

والذى يستطيع الإفلات بجلده من القاهرة إلى الإسكندرية لايلبث أن يعلن ولاءه للخديو .. وأن يهاجم الثورة وتطرفها ..

ولهذا كان انتقاد صابونجى لعرابى صحيحاً مائة فى المائة عندما قال أن الخطأ الفادح الذى ارتكبه كان سماحه لتوفيق بالسفر إلى الإسكندرية أى سماحه الرجعية بإقامة معسكر مستقل وبعيد عن نفوذ الثورة . . وإلى هذا المعسكر اتجهت كل أنظار الرجعيين . . والخونة . . والمترددين .. والمعتدلين . والخائفين على أراضيهم من انتفاضه الفلاحين ..

ويضرب على باشا مبارك المثل لأبناء طبقته .

فهو ثائر مع الثوار . . فإذا ما التهبت الثورة بدأ قلبه يخفق بالخوف والرعب منها .

وإذا جاءت الأنباء بضرب الإسكندرية وانحياز الخديو إلى الأعداء . يتساءل على باشا مبارك وهو يتصنع الحكمة ما الذى يمنع من أن يكون ما سمعناه من أخبار الإسكندرية كذباً وزوراً ،

ويرد عليه النديم فى قسوة . . إذا لم يكن يكفيك شهادة ٣٠٠ ألف

نسمة من الرجال والنساء والأطفال خرجوا مهاجرين من الثغر . . فما الذى يكفيك(١) .

ويصمت على مبارك . . ويصوت مع الجمعية العمومية التى عقدت من رجال الدين والأعيان والموظفين والتجار وغيرهم التى قررت وجوب عزل الخديو .

لكنه ما يلبث أن يفلت بجلده من القاهرة مندوباً عن الجمعية العمومية ليفاوض الخديو فى الإسكندرية فى أن يصلها حتى ينحاز إلى معسكره الطبيعى . . ويرسل إلى عرابى ليبلغه أنه قد تقرر تشكيل قومسيون يكون مركباً منا ومن بعض الذوات ليجتمع مع قومسيون مركب ممن تعينونه وتعتمدونه من أمراء العسكرية . . المذاكرة فى الأحوال الحاضرة .

ويرد عرابى « نحمد الله على وصول سعادتكم بالسلامة وأفيد سعادتكم أنه بعد قرارات الجمعية العمومية فإنه ليست لى أدنى صفة أو حق لتعين قومسيون من طرفى لأنى لست مستقلا بعمل أمر ما بل أنى مطيع ومنقاد فى أى حال لما تأمر به الأمة . . ولهذا فإنى متأسف لعدم إمكانى إجابة طلب سعادتكم . أفندم(٢) .

والحقيقة أن كثيرين من الذين بقوا فى القاهرة يمالئون الثورة كانوا مثل على باشا مبارك يخشون هذه الثورة . . ويحنون إلى المعسكر الآخر .

وبالتدريج يتجرأ الخديو وهو يجد الأعوان يزدادون من حوله ويصدر بياناً يعلن فيه عصيان عرابى .

« نحن خديو مصر نعلن لجميع المصريين أن عرابى باشا قد ارتكب آثاماً جسيمة فظيعة . . وأعلن جهراً عصيانه بأكاذيبه الظاهرة فلذلك عد عاصياً ومستحقاً لأشد العقابات .

---

(١) النديم ص ٢١٠ .

(٢) سليم نقاش جـ ٥ ص ١٣ .

ولقد رأينا أن قلوب كثيرين من رعيتنا لا تزال قاسية مائلة إلى عرابى بالرغم من أوامرنا السابقة فلذلك أصدرنا هذا المنشور معلنين فيه أن كل شخص يعرف ذا ضلع مع عرابى وميل له عددناه عاصياً مستحقاً لجزاء العصاه » .

وازداد الارتباك وسط المترددين . . وإن ظل بعضهم يحاول أن يمسك بالعصا من منتصفها .

٤

« كم أتمنى أن أرى عــرش
السلطان وهو ينهار فوق رأسه » .

عبد الله النديم

بين نيران ثلاثة

ولم تكن نيران الخديو وحده هو وأعوانه . .

لكن كان هناك السلطان ومؤامراته ومناوراته الساذجة . .

وكان هناك المستعمرون . . القوى الاستعمارية كل منها تناور لحسابها الخاص وكل منها تبذل الجهد لتحقيق لنفسها أكبر كسب ممكن .

وبين هذه القوى المصارعة فى عنف . . المتضاربة فى صخب . . المناورة فى دهاء . . وسط هذه القوى جميعاً كان يتحتم على عرابى أن يشق لثورته طريقاً . . تناور بالقدر الذى لا يفرط فى المبادىء . وتتشدد بالقدر الذى لايوجد الأعداء المضاربين معاً . وتحاول بين اللين الشدة أن تلعب على هذه التناقضات جميعا أن استفيد منها جميعاً . .

فهل نجح عرابى ؟

الحقيقة أنه بذل من الجهد ما ينم عن براعة سياسية لانظير لها . .

ولنبدأ بلعبة القط والفأر مع السلطان . .

كان عرابى يكره الأتراك ما فى ذلك شك وقد أعلن ذلك منذ اللحظة الأولى . يقول بلنت فى رسالة منه إلى جلادستون .

« أما بالنسبة للسلطان قد أعلن عرابى فى صراحة أنه لايحب الأتراك وأنه لن يسمح بأى تدخل من الاستانه فى شئون بلاده . لكنه وضع حداً فاصلا بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان بإعتباره أميراً المؤمنين . . »

لكن عرابى كان يريد أن يوقف السلطان عند حده فقد أكد « أننا جميعاً أبناء السلطان نعيش كأفراد أسرة واحدة فى بيت واحد . . كل منا له إقليم من الإمبراطورية ، له حجرة مستقلة فى المنزل وهى حجرة خاصة

بنا فتصرف فيها وفقاً لإرادتنا ويجب ألا تسمح لاحد بأن يعبث بسيادتنا عليها . لقد حصلت على وضعها المستقل من خلال نضال ، مستميت ولسوف تناضل للحفاظ عليه . . (١)

بهذه الصراحة أعلن عرابى موقفه . حتى عندما أرخى له السلطان الحبل واتصلت المراسلات بينهما . . وحتى عندما لوح له السلطان بكرسى الخديوية . ؛ ظل عرابى متمسكاً بهذا الموقف . . لكنه كان يخفى ماهو أشد منه . .

ويكتب صابونجى إلى بلنت « أنهم يتملقون السلطان . . ويعلنون ولاءهم له كخليفة للمسلمين لكن الحقيقة هى أن السلطان لايعنيهم فى شئ . . أنهم يستخدمونه طالما أنه مفيد لهم لكنهم لن يلبثوا حين يحسون بقوتهم حتى يعلنون تمردهم عليه وإقامة حكومة جمهورية مستقلة فى بلادهم . . لقد قرروا ذلك منذ البداية . .لكنهم لم يعلنوه حتى يحين الوقت الملائم » (٢)

ولنقرأ ما يكتبه محمد عبده فى ٢٥ إبريل ١٨٨٢ . . وكان محمد عبده فى ذلك الوقت قد تخلى عن تردده . . وأذهلته خيانة سلطان باشا وشريف باشا السافرة وارتمائهما تماماً فى أحضان الانجليز . . وأصبح محمد عبده من كبار الدعاة العرابيين . .

« لم يطلب عرابى لنفسه لقب الباشوية من السلطان . . لكن توفيق هو الذى أصر على ذلك لكننى بهذه المناسبة أود أن أطلب إليك أن تمحو من ذهنك تماماً أية فكرة خاطئة عن أن عرابى أو الحزب العسكرى أو الحزب الوطنى يعمل كأداة فى أيدى الأتراك ، أن كل إنسان فى مصر سواء كان من العلماء أو فلاحاً أو صانعاً أو تاجراً أو جندياً أو مدنياً أو سياسياً كان أو غير سياسى يكره الأتراك ولا ينسى لهم ظلمهم

(١) بلنت. ص ١٧٠ .
(٢) بلنت . ص٣٤٧ .

وعسفهم . . مامن مصرى يسمع أن الجنود الأتراك سوف يطاون أرض مصر حتى يسارع إلى سيفه ليصدهم عن وطنه » . (١)

والحقيقة أن السلطان كان يخشى من عرابى أكثر من أى شخص آخر لا لأنه أهدر مركزه فى مصر . . وإنما لأنه أهدر فكرة الخلافة ذاتها . . وفى أكثر من مكان . فعرابى لم يكن مناضلا مصرياً فحسب لكنه كان أملا لكل البلاد الإسلامية . . كان رمزاً لنضالها الصامد الشجاع ضد الاستعمار الأوربى والتسلط التركى . .

وعندما فكر السلطان فى إرسال حملة إلى مصر « لتأديب عرابى » إنهالت العروض من كل أنحاء العالم الإسلامى تستنكر موقف السلطان وتؤيد عرابى . . وتصل الحملة إلى اللاذقية ويصف مراسل التيمس موقف الشعب السورى منها فيقول « لقد حدث هيجان شديد وأعلن السوريون مقاطعتهم للحملة وامتنعوا عن التعامل معها وأظهروا الجفاء والامتهان لها ناعين عليها خروجها لحرب المسلمين وخرج عن المقاطعة أحد كبار التجار فباع الجنود الأتراك لحوماً وطعاماً فلم ينته اليوم حتى أحرقت كل متاجره فى المدينة وكان الرجل يطلب النجدة كالمجنون من الأهالى فيبصقون فى وجهه ولا يتحركون لمساعداته بل يتهكمون عليه قائلين اطلب النجدة من سادتك الأتراك . . »(٢)

ويمتد نفوذ عرابى بعيداً عن السودان .. وبعيداً جداً إلى الهند حتى يجد الاحتلال الإنجليزى هناك أن من الضرورى شراء مشايخ بعض المسلمين الهنود لإصدار فتوى بعصيان عرابى .

وحتى فى سيلان عندما ذهب عرابى منفياً يكتب مراسل الأوبزرفر السيلانية فى دهشة « ما أن نزل عرابى حتى هتفت الجماهير وهجمت عليه يقبلون قدميه ويديه . . كان الرجل عالى الرس وكأنه! يستقبل مظاهرة

---

(١) بلنت ص ٢٥١ .

(٢) التيمس ٣٠ / ٦ / ١٨٨٢ نقلا عن النديم ص ١٩٨ .

فى القاهرة أوالاسكندريه .. وأحس الناس بحيرة شديدة هل يمشون خلف عرابى أم ينتظرون حتى يروا بقية القادمين الجدد .. ولم يصبر على هذا الامتحان العسير إلا القليلون جداً .. أما الألوف فقد مشت خلف عرابى »(١)

كانت الجماهير المسلمة فى كل مكان .. سلاحاً لعرابى فى معركته .

ومن أجل هذا كرهه السلطان ..

لكن لعبة القط والفأر كان يتحتم عليها أن تستمر ..

كان يتحتم على السلطان أن يداهن عرابى وعلى عرابى أن يستمر إعلان ولائه للخليفة .. فثمة قوى أجنبية أخرى تلقى بثقلها فى المعركة وثمة إحساس قوى وسط المصريين بأن الخلافة لا زالت هى باب الإسلام وحامية حماه .

وطوال الثورة كان الخيط الرفيع لا ينقطع أبدا ..

ثم جاء درويش باشا .. وسبقته ولحقته حملة واسعة تحاول أن تخيف عرابى منه .

ويكتب جون مورس فى « البال مال جازيت » « لقد آن لجميع ممثلى الدراما المصرية أن يلوموا أماكنهم .. فقد وصل الرجل الحديدى القوى درويش باشا .. إن درويش رجل صعب المراس .. نظرة واحدة منه كافية لأن يركع عرابى على ركبتيه .. فإن كلمة وقحة واحدة من كلمات عرابى كفيلة بأن يطيح برأسه ليتدحرج على السجادة تحت أقدام درويش .. وبهذه الإراد العثمانية الحاسمة يمكن القول بأن الثورة المصرية قد وجدت السيد الذى يستطيع أن يكبح جماحها »(٢)

---

(١) الأوبزرڤر السيلانية ١١/١/ ١٨٨٣ .

(٢) بلنت ص ٣٠٢

لكن عرابى لم يخش درويش ولم يركع أمامه . . بل استخدم ضده نفس السلاح الذى استخدمه السلطان . . الجماهير . .

ويصل درويش إلى الاسكندرية ليجد مظاهرات ضخمة تهتف فى وجهه « اللائحه اللائحه مرفوضة مرفوضة » « اطردوا الاسطول » . . وكانت الإسكندرية كلها تهتف . . الرجال والأطفال .. وحتى النساء . . فقد رتب النديم الامر جيدا بتعليمات من عرابى (١)

وعندما ينزل درويش من عربته وهو يغلى غضباً . . يتسلم عريضة تحمل ٠٠٠ , ٩٠ توقيع تطالب برفضه اللائحة . . وعزل الخديو .. وإبقاء عرابى . .

لكن الرجل الحديدى لايستسلم بهذه السهولة . . ففى مقابل ال ٠٠٠ ر٩٠ توقيع كان هناك ٠٠٠ ر٢٥ جنيه بقشيشاً من توفيق إلى درويش

ويبدأ درويش لعبته بعيداً عن عرابى فى محاولة لجس نبض الحركة وعمقها . ويستقبل مشايخ الأزهر لكنه يفاجأ أنهم يحدثونه بحرية لم يتعود عليها من قبل . . لقد أعلن جميع المشايخ باستثناء أربعة منهم العباسى والبحراوى والابيارى والسادات . . أعلنوا تأييدهم التام والمطلق لعرابى ورفضهم الحاسم للائحة الأوربية . . ولم يطق درويش صبرا وصاح فيهم « اخرسوا . . لقد أتيت إلى هنا لاصدر الأوامر لالأستمع إلى نصائحكم» وصاح مرة أخرى « أخرجوا من هنا » وفى نفس اللحظة أصدر أوامره بمنح المشايخ الخونة الأربعة — نياشين عثمانية .

وكان رد الفعل عنيفاً جداً وسط الشعب وتوالت رسل عرابى إلى جميع الأرجاء تدعو الناس للتظاهر احتجاجاً على إهانة مشايخ الإسلام . وكانت لفتة عبقرية من عرابى . . انهم يستخدمون الخلافة الإسلامية سبيلا — لتسلطهم . . والآن لقد ضبطوا متلبسين بإهانة مشايخ الإسلام وقامت

---

(١) النديم ص ١٩٤.

ضجة كبيرة . . مظاهرات في كل مكان . . مؤتمر ضخم فى صحن الازهر الشريف يلقى فيه النديم خطابا ناريا ويصدر المجتمعون استنكارا شديداً لموقف درويش باشا . . .

ويكسب عرابى الجولة . . ويفقد درويش الثقة فى نفسه وفى نظرته الحديدية ويرسل فى استدعاء عرابى والبارودى وفى الاجتماع كان درويش متجهما بالرغم من أنه قدم لهم القهوة والسجاير وبدأ درويش يتملقهم فى عجز وأجلسهم بجواره وبدأ يتحدث « والآن نحن جميعا أخوة . . كلنا أبناء السلطان وأنا بلحيتى البيضاء هذه أصلح أيضا أبا لكم . أننا جميعا نسعى لتحقيق هدف واحد هو أبعاد التدخل الأجنبى عن مصر ورحيل الأسطول . . . ليس أمامنا سوى أن نعمل متحدين . ويوجه كلامه لعرابى « عليك ياولدى أن تسلم قواتك العسكرية إلى ولكن فى الظاهر فقط وأن ترحل إلى القسطنطينية لكى يرضى عنك السلطان »

وإذا كان الثقل الشعبى قد أنهى أسطورة درويش باشا وقوته .. فإن عرابى يرفض بشدة مناورته الماكرة ويقول : « أنا على أتم استعداد لأن أستقيل من منصبى لكننى وقد تحملت مسئولية ضخمة تجاه الأمة لا أستطيع أن أقبل الحلول الوسط فإذا استقلت يجب أن استقيل حقيقة وليس فى الظاهر فقط وأنا على أية حال لن أقدم استقالتى مطلقا ما لم يطلبوا إلى ذلك كتابة أما الرحلة إلى القسطنطينية فان الظروف المضطرب الآن لاتسمح بها »

ومرة أخرى يحاول درويش « حسنا ياولدى لنبدأ فى الخطوات العملية أرسل حالا تلغرافا إلى عمر لطفى باشا أخبره إنك قد استقلت من منصبك وأصبحت تابعا لى وفى الغد نجتمع نحن والقناصل ونعطيك ما تريد كتابة » (١)

ويرفض عرابى بشده

---

(١) بلنت ص ٣٠٨ .

ويظل عرابى يرفض كل طلبات درويش . . فقد أن للمداراه أن تنتهى . . ولامجال للحلول الوسط . .

وتقترب لعبة القط والفأر من نهايتها . . ويبدأ النديم هجومه علنا على درويش . . ويسدل الستار تماما عندما تصدر « الجوانب » معلنة عصيان عرابى . . (٢)

ولكن المشكلة لم تكن السلطان وحده فهناك أوربا المتربصة بثورة عرابى التى تضم عشرات القوى المتصارعة والمتضاربة والمتدخلة جميعا فى شئون بلاده . .

إنجلترا فرنسا النمسا روسيا المانيا إيطاليا . . وحتى بلاد كاليونان كانت ذات وزن فى المناورات الدبلوماسية النشطة . . بل وأرسلت هى الأخرى ذات يوم سفينتين حربيتين إلى مياه الإسكندرية بل وأنزلت جنوداً لها بالمدينة .

وفى يوم واحد احتشدت فى ميناء الاسكندرية السفن التالية .

الأسطول الانجليزى بقيادة سيمور .

الأسطول الفرنسى .

فرقاطه نمسوية .

سفينتان أمريكيتان .

سفينتيان يونانيتان .

مدرعة المانية .

مدرعة إيطالية .

سفينتان روسيتان ..(١) .

ولعل هذا وحدة يكفى ليوضح الأطماع والتطاحن بين القوى المختلفة التى كان عرابى أن يتعامل معها جميعا .. ليكسب إلى صفه البعض

---

(١) راجع النص الكامل لإعلان عصيان عرابى فى مصر المصريين جـ ٥ ص ٢٠١ .

(٢) المرجع السابق جـ ٥ ص ٥١ .

وليوقف البعض الآخر موقف الحياد . . وليحارب الآخرين ، وهى مهمة غاية فى الصعوبة خاصة فى ظل الظروف التى كانت تعيشها الثورة حيث تتغير مواقع كل دولة وفقا لظروف عديدة وليس من السهل الإحاطة بها جميعا . .

وفى جو الصراع الأوربى كانت ثمـة خيوط رئيسية تحرك السياسة الاوربية كلها ..

تركيا رجل أوربا المريض الرابض على البوسفور . . والأطماع الأوربية التى تنهش ولاياتها . . والصراع الروسى القديم معها ..

الحلف الألمانى الروسى عقب الحرب البروسيه لم يصمد طويلا .. ويخشى بسمارك من تأزم العلاقات الفرنسية البريطانية إلى الحد الذى يدفع فرنسا إلى الخلاف مع روسيا .. ويخطط بسمارك السياسة الألمانية على أساس إشباع أطماع كل من بريطانيا وفرنسا معا . . خارج أوربا بهدف السلم والاستقرار الأوربيين ..(٢)

أما فرنسا فقد رأينا كيف كان رأس المال الفرنسى يسيطر على الحياة المالية والاقتصادية فى مصر .. وكيف كان ديرفيو — وهو فرنسى متعصب يسيطر على أعصاب الحياة الاقتصادية فى البلاد . وكان النفوذ الثقافى الفرنسى هو الغالب .. واللغة الفرنسية هى السائدة فى دواوين الحكومة وفى قصور الخديو والأمراء . . ومعظم الموظفين الأجانب من الفرنسيين .. وقناة السويس أهم مشروع فى مصر فى أيد فرنسية(١)

وهكذا فإن أفضل شيء بالنسبة لفرنسا كان استمرار الوضع فى مصر كما هو طالما أنها لا تملك القوة ولا القدرة على احراز أى تقدم عملى . .

ولهذا تمسك جمبيتا بأن يقحم فرنسا فى أية خطوة قد تفكر انجلترا فى اتخاذها حيال مصر .. وهكذا وتحت شعار العمل المشترك مع انجلترا . .

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه د. محمد صفوت طبعة ١٩٥٢ ص ٢٦ وما بعدها .

(٢) ديسى . مصر المستقبل ص ١٠١ .

عرقل جمبيتا أى تدخل من جانب بريطانيا التى كانت تتوق للعمل منفرده ..

هكذا كان الموقف .. توازن فى صالح التدخل . . وكذا كان عرابى يرتب حساباته .. فالصحف الألمانية والفرنسية والنمسوية والروسية كانت تفيض بالعطف على مصر .. فالكوربيه دى فرانس كتبت تقول :

« أن الحكومة الألمانية التى كانت قد لزمت جانب الحياد ما لبثت أن عدلت هذا الحياد وتشير جميع الصحف البرلينية إلى أن رسول بسمارك قد أكد للسلطان أن المانيا سوف تتخذ موقف المتشدد من أى تدخل إنجليزى» .

وفى ١٥ أغسطس ١٨٨٢ كتبت جريدة جازيت دى لاكروا « أن انجلترا ليس لها حق فى الاستيلاء على ترعة السويس بناء على رضاء الخديو وحده لأن هذا الرضاء لا قيمة له بالنظر لحقوق الأمم الأخرى » .

وتقول الناسيونال :

« أن قناة السويس ليست نافعة لانكلترا وحدها وإنما هى مجتمع لمنافع الدول جميعا وأن سلامة مصر ورفاهيتها موقوفتان على دخول التمدن الأوربى فيها وليس على وضعها تحت حكم الإنجليزى » .

وقالت : « البوست » أن الحكومة الانجليزية ستسوق نفسها إلى إخطار هائلة إذا ما استمرت على إصدارها على انتهاج سياستها هذه تجاه مصر وتجاه قناة للسويس » .

وقالت : « نوفيل برس ليبر النمسارية » لو أن الباب العالى قبل مقترحات بريطانيا لنفرت منه قلوب الدول المعضده له فى المؤتمر ..

وأكدت الجازيت ناسيونال الألمانية .. أن أوربا يمكنها معاقبة انجلترا إذا لم تراع حقوقها وحقوق الدولة العثمانية .

وقالت جريدة النوفوستى الروسية : « أن مصالح أوربا تتعارض تماما مع مصالح انجلترا فى تنفيذ مقاصدها » .

وفى ٥ أغسطس كتبت جريدة لى . بى « أن أغلب الصحف الالمانية مازالت مستمرة فى إظهار عدوانها للإنجليز وتتمنى لو أصابت الانجليز

مصيبه نتيجة لتدخلهم فى مصر بل أن التهديدات الألمانية كانت مباشرة وصريحة فعندما نشرت التيمس اللندنية مقالا تطالب فيه باحتلال القاهرة .. ردت عليها جريدة كوستبونج الألمانية رداغاية فى العنف قالت فيه : « لو فعلت انجلترا ذلك لعرضت نفسها لأشد الأخطار فليست أيامنا هذه كالأيام الماضية التى كانت أوربا تتحكم فيها انجلترا »(١) .

وكان عرابى يتتبع فى إدراك غاية فى الوعى هذه التناقضات ويحاول أن يستفيد منها وأن يعتمد عليها فى سياسته ..

لكنه لم يكن لديه قناصل فى الخارج .. ولا جهاز مختص بتابع هذه التناقضات وتطوراتها وهو نفسه وكل رجال العسكرية لايعرفون أية لغة أوروبية..

وكانوا جميعا يعتمدون على مصطفى فهمى باشا وزير الخارجية الذى كان يجيد الفرنسية يترجم لهم البرقيات والخطابات . . وكان مصطفى فهمى هذا مغرضا ويكره العرابيين . . ويميل ناحية شريف فهو قريب له . .

باختصار كان عرابى يقود ثورته عبر كل هذه التناقضات معتمدا — وفقط — على متابعة هذا الجدل الصارخ الذى تمتلىء به الصحف الاوربية متابعة جزئية ومن خلال أيد غير أمينة .

ولابد أن هذه الصحف كانت تصل إلى مصر وإلى الجاليات الأجنبية . . فسليم خليل نقاش هو الذى أورد كل المقتطفات السابقة بل واورد أكثر منها بكثير . . ويعلق سليم النقاش على هذه المقتطفات قائلا : « ومن مجملها يتضح للقارىء الكريم أن الأميال العمومية كانت فى ألمانيا والروسيا وفرنسا وإيطاليا منحازة إلى العرابيين فكانت تزيدهم على ما سبق لنا بيانه إصرارا على المقاومة واملا فى انتصار الدول لهم فتساعدهم على إخراج الانجليز من مصر »(٢) .

ويمضى سليم النقاش قائلا :

(١) لمزيد من التفاصيل راجع مصر للمصريين جـ ٥ ص ١٦٢ .

(٢) مصر للمصريين جـ ٥ ص ١٨٣ .

« وكان العرابيون يتلقون هذه الأقوال والمنشورات ويزدادون بها ثباتاً على عزمهم وتيقناً بأن فوز انجلترا فى محاربتهم من رابع المستحيلات وإنها وإن فازت فى البحر لا تفوز فى البر .. وكان رؤساؤهم ومن كان يطلع منهم على مقالات الفرنساوية فى مجالسهم يؤمنون بأن النصر لا يكون لغيرهم فمن ذلك مارسخ فى عقولهم أثر مقال ألقاه المسيو كليمانصو الفرنسى فى باريس قال فيه إن الأمة المصرية قابلة للتمدن ومستعدة للتهذب وإن بث الأفكار الحرة المتعدلة هو مطمع أنظار السياسة الفرنسية فى مصر » (١) .

وبطبيعة الحال كان القناصل الأجانب يعكسون هم أيضاً سياسة دولهم وكانوا يعارضون بشدة إطلاق النيران على الإسكندرية . . وعندما وجه سيمور تهديداته اجتمع القناصل ووجهوا له البيان التالى (٢) .

« إن لرعايانا مصالح مهمة فى الإسكندرية ولهم فيها أملاك واسعة وعقارات كثيرة والباقون منهم فى المدينة كثيرون وهذا ما دعانا إلى أن نسألكم هل اقتنعتم من جواب الحكومة المصرية على سؤالكم المتعلق بتحصين القلاع أم لا فإن كان الثانى فإننا نستطيع أن نطلب تعديل الجواب المذكور بحيث يرضيكم ويقنعكم .. وإننا نخطركم إن إطلاق المدافع سينشأ عنه — كيف كانت الحال — ضرر عظيم يلحق بسكان المدينة من نصارى ومسلمين ولابد من أن تنهدم به مبان عديدة للأوربيين وبودنا لو أنكم ترفعون إلى حكومتكم ملاحظاتنا هذه قبل أن تنفذوا أوامرها » ..

التواقيع

بارون كوسجك	دى لكس	دى مارتيفو
النمسا	روسيا	إيطاليا
بارون ساورما	دى فورج	
ألمانيا	فرنسا	

---

(١) المرجع السابق جـ ٥ ص ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق جـ ٥ ص ١٨٣ .

هكذا كانت التناقضات بين القوى الأوربية هي الورقة الرابحة فى يد عرابى . . وقد ظل يلعب بها وبمهارة شديدة حتى النهاية . . فالتعليمات للجنود والأهالى ألا يتعرضوا بأى أذى لأى أجنبى غير إنجليزى وثمة مواقف بالغة الدلالة . .

مسيو دومريكر قنصل النمسا فى الإسكندرية كان يرفع راية النمسا فوق وكالته التجارية . . وصدرت أوامر الجهادية بإنزال جميع الرايات المرفوعة حتى لا تستخدم وسيلة للإشارة للسفن التى تضرب الميناء . . وأرسلت قيادة الحركة العرابية إلى مسيو دومريكر تطلب إليه أن ينزل الراية عن وكالته فأبى . . ثلاث مرات طلبوا إليه ذلك وهو يرفض . . وما كان أسهل أن - ينزعوها بالقوة خاصة وأن القنصل أهان الضابط المصرى وجنوده الذين انسحبوا فى هدوء . . فالتعليمات لديهم مشددة . . ومن بعيد من حصن كوم الدكة صوبوا مدفعاً رشاشاً على الراية وحدها محاولين جهدهم ألا يصيبوا مبنى الوكالة بأى ضرر (١) .

وثمة حادثةأخرى لقد استولى مسيو جوج المراقب المالى الفرنسى على معظم أموال صندوق‌الدين ولجأ بها إلى بنك الأنجلواجيبسيان الذى تحصن فيه مسيو جوسيو محافظاً على أموال البنك .

وكان عرابى يعلق آمالا كبيرة جداً على الاستيلاء على أموال الأمة المصرية التى خطفها المراقب المالى لكنه لم يرد أن يدخل فى نزاع مع فرنسا رغم شدة حاجته المال . .

ويروى الضابط الألمانى برتبوفير الذى نزل هو و ٢٤ جندياً إلى البر لحراسة مستشفى الراهبات كيفية استقبال الأهالى له فيقول « سرنا حوالى ساعة وكان الأهالى يرحبون بنا ويصيحون أهلا وسهلا ويصفقون لنا . . وأخبرنى القواص المرافق لنا أنهم يفعلون ذلك حباً فى ألمانيا » (٢) .

---

(١) المرجع السابق جـ ٥ ص ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق جـ٥ ص ٧٦ .

وكان طبيعياً أن يطبق عرابى نفس الخطة تجاه « قناة السويس » فعندما أرسل دليسبس قائلا « لا تسد قناتى وأنا أتعهد لك لن ينزل جندى انجليزى إلا ومعه جندى فرنسى لم يكن أمام عرابى سوى أن يصدقه .. لكنه مع ذلك بالغ فى الحيطة فاتصل ببعض الأمريكيين طالبا منهم شراء ألغام لوضعها فى قناة السويس .

ولم يكن أمام أى سياسى سوى أن يفعل تماماً كما فعل عرابى .. ففى ظل تناقضات كهذه كان سد القناة حماقة لا تعنى سوى خسران كل الدول الأوربية وفقدان الميزة الأساسية والورقة الرابحة التى كان يلعب بها ..

.. ولم يكن التناقض بين القوى الامبريالية هو الورقة الوحيدة التى يلعب بها عرابى فى مهارة .. لكنه كان يستفيد أيضاً إلى أقصى حد من القوى اليسارية والتقدمية والعمالية فى أوربا .. وكانت صحفه تنشر أنباء التأييد العمالى واليسارى لحركته .

وكان هو يستفيد من هذا الثقل أيضاً ..

وتنشر الصحف العرابيه الخبر التالى :

« فى ٣٠ يوليو أقيم فى قاعة ريفولى بباريس إحتفال شائق عقده قوم الفعلة (العمال) وتليت مقالات مهمة بشأن المسألة البريطانية فأجمع الخطباء على مقاومة أى تداخل على ضفتى القناة وقبحوا إشهار إنجلترا للحرب .. وصوت الحاضرون على القرار التالى .. إن المجتمعين قد وافقوا على التنديد بالحكومة وبمجلس النواب والشيوخ ويعلنون إن من الواجب على حزب الفعلة ليس مغالبة كل تداخل حربى فحسب بل ومعارضة كل حيادة من شأنها أن تبيح للإنجليز البطش بمصر فإننا نرى من فرائضنا المحاماة عنها وإرشادها إلى طريق حريتها » .

.. وفى لندن كما فى باريس .

« عقدت جلسة حضرها وكلاء عن جمعيات الفعلية الإنجليز النظر

فى سير الحكومة فى المسألة المصرية وحضرها بعض أعضاء البرلمان واستقر الرأى على أن يعرضوا لرئيس الوزراء كدرهم من اطلاق المدافع على حصون الإسكندرية وإعلان معارضتهم لكل تداخل حربى فى داخلية مصر حيث لا سبب يوجب هذا التداخل شرعياً وإن يطلبوا إلى الحكومة استدعاء الأسطول سريعاً وإيقاف القتال الذى عدوه مجاوزاً لحدود المساواة بين الأمم بل قالوا أنه ما من شىء دعا إليه إلا مصلحة أرباب البنوكة التى لا توازى ما يترتب عليه من الاخلال بشرف الإنجليز وإبادة آمال الشعب المصرى » .

ولم يكن عرابى يستند إلى التأييد اليسارى القادم عبر البحار فحسب لكنه كان يميز بين الأجانب المستغلين الذين ينهبون ثروات بلاده .. وبين العمال الأجانب الذين قامت بينه وبينهم صلات ، والذين ظل إلى آخر لحظة من الثورة على علاقة بهم بل ويدفع شيخ الإسلام إلى إصدار فتوى شرعية لحمايتهم من غضبة الشعب ..

وثمة برقية يتلقاها البارودى من كامينى رئيس جمعية الفعلة الطليانية بالإسكندرية يخبره فيها أن جمعيته قد عقدت حفلة عمومية قررت فيها أن ترفع إلى مقامكم السامى بيان ما تتمناه من نجاح مقاصد الحزب الوطنى المصرى وأمانيه الوطنية .. »

وهكذا كانت الحسابات جميعاً تشير إلى أن الميزان يميل إلى صالح مصر . . وأن الإنجليز بضربهم الإسكندرية قد عزلوا أنفسهم تماماً . . عن الشعوب وعن القوى الإمبريالية الأخرى

وهكذا كان عرابى يقود المعركة الدبلوماسية بمهارة بالغة الحد .. الضرب ضد الإنجليز وحدهم والسعى لكسب الآخرين جميعاً .

وفى هذه الأثناء كان عرابى يتلقى تقارير خاصة من فرنسا توحى إليه أن القوات الإنجليزية غاية فى الضعف . . وأن إنجلترا لن تستطيع أن تحشد قوات كافية مطلقاً .

وترد إلى مصر نسخ من جريدة ناسيونال الفرنسية تقول « من المعلوم أنه من الصعب على إنجلترا فتح حرب بدون أن يكون لها معين فإنها بدون ذلك لابد وأن تتعرض لأخطار جسيمة » ، ومجلة لى بيل الفرنسية تقول فى وضوح تام :

« إن إنجلترا ليس فى وسعها أن تحشد من الجنود أكثر من ٢١ ألف عسكرى إذا حاولت تأييد لائحتها الأخيرة . وأن كل ما تسطره بالجرائد الانجليزية ليس إلا أمراً خيالياً » .

وتقدم الجريدة سلسلة من الحسابات توضح أنه لا يبقى لإنجلترا من الجنود لتستخدمه ضد مصر سوى ١٦٫٠٠٠ جندى . وتؤكد أن الإنجليز لا يستطيعون أن يستخدموا أية جنود من مستعمراتهم الإسلامية لحرب ضد مسلم .

وكان عرابى يستخدم هذه الورقة أيضاً فهو يكتب إلى بلنت فى ٢ يوليو سنة ١٨٨٢ رسالة تفيض بالشجاعة والحماس . يقول فيها : « لقد أمرنا نبينا الكريم وقرآننا العزيز ألا نبدأ الحرب ولا نسعى إليها ، ولكن تعاليم ديننا تحضنا على مقاومة أى اعتداء على وطننا وعلى أن نستشهد فى سبيله . إن أى اعتداء علينا سوف يوقع بكم أضراراً جسيمة . . لسوف تصادر أموالكم هنا وسوف تدمر قناة السويس ونحرمكم من أية طرق للمواصلات . إن طلقة رصاص واحدة ضد مصر سوف تعنى حرباً دينية شاملة تمتد من دمشق حتى الهند . . إن المسلمين جميعاً يرون أن مصر هى مفتاح مكة والمدينة وأن سيولا من الدماء سوف تنهمر فى كل آسيا وإفريقيا دفاعاً عنها . ولتتأكد إنجلترا أننا مصممون على القتال . . على الشهادة فى سبيل الله فلقد حضنا نبينا الكريم على الاستشهاد . . فإما أن نستشهد كرماء وإما أن نعيش حياة حرة كريمة منتصرة »(١) .

---

(١) بلنت ص ٣٧٢ .

هكذا كانت تسير الأمور . . ثم فجأة حدثت تطورات هامة فى أوربا حدثت بسرعة مذهلة لم يكن لإنسان أن يتوقعها . . أو أن يتتبعها خاصة إذا كان يعتمد على مجرد متابعة الجرائد الأجنبية .

فجأة يقرر القيصر الروسى أن يرتمى فى أحضان بسمارك خوفاً من الصراع الداخلى المستعر فى أرجاء روسيا ومن جديد يتألق حلف القياصر الثلاث الروسى والألمانى والنمسوى ولا يصبح بسمارك بحاجة إلى ارضاء فرنسا . . ولا يعود بحاجة إلى الضغط على إنجلترا لإرضائها خوفاً من انضمامها لروسيا .

وفى فرنسا يستقيل جامبيتا المتشدد وتأتى إلى الحكم وزارة فريسينيه الأكثر هدوءاً والأكثر تردداً والأقل استقراراً فى الحكم .

ويتلقى فريسينيه رسالة سرية من دى ليسبس يؤكد له فيها أن الجنود الإنجليز سوف تتلقى ضربة قاصمة فى مصر . . وأن عليه أن يجلس فى انتظار إرسال التعازى إلى أصدقائه الإنجليز(١) .

وهكذا قررت فرنسا ألا تتدخل .

أما روسيا فإن تحالفها مع ألمانيا قد غير الموقف أيضاً فهى تتنازل لتركيا عن القسط الأول من ديون الحرب حتى يستطيع الباب العالى أن يرسل تجريدة إلى مصر .

وكان طبيعياً بعد كل ذلك أن تقف القوى الأخرى مثل إيطاليا وغيرها مكتوفة الأيدى(٢) .

ويجد جلادستون الميدان خالياً أمامه .

أما عرابى فقد تتابعت الأحداث فى سرعة مذهلة . . وحينما وصلت أنباء التراجع الأوربى عن طريق الصحف كان الوقت قد فات ،

---

(١) ديسى مصر المستقبل ص ١٠٢ .

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع . الشرق الأوسط فى مهب الرياح . يوزباشى صلاح مصر ويوزباشى كمال الدين الحناوى . طبعة ١٩٤٩ ص ٢١ ، ٢٢ .

وتصدر التعليمات سريعة متلاحقة بردم قناة السويس . . لكن الوقت قد فات واحتل الإنجليز القناة

هذه هى صورة الصراع الذى يتحتم على عرابى ان يخوضه . . وفجأة تحول الأصدقاء والحلفاء إلى قوى معادية .

وحوصرت الثورة بين نيران ثلاثة ضارية .

خيانة كثير من الأعيان والمثقفين وكبار الموظفين وانضمامهم للخديو .

خيانة السلطان وإعداده تجريده لغزو مصر . . وإصداره بياناً بعصيان عرابى .

خيانة أوربا وتراجعها فى آخر لحظة ومباركتها للعدوان الإنجليزى .

وبين هذه النيران الثلاث قاد عرابى ركب الثورة فى بسالة نادرة .

٥

« الولس هزم عرابی »
مثل شعبی

الحرب بين الصمود والخيانة

والصمود كلمة لاتكفى . لكن أية كلمة أخرى لاتكفى هى الأخرى .

فبسالة المصريين فى الإسكندرية والمواقع الأخرى لا تستطيع أية كلمات أن تصفها . . وصمودهم أمام الإنجليز أبلغ وأعمق وأعظم من أن يوصف .

كل الناس كانوا يحاربون .. الرجال والنساء وحتى الأطفال .. ويوصف محمد عبده معركة الإسكندرية قائلا : « كان الرجال والنساء تحت مطر قنابل الإنجليز ونيران مدافعهم ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وهم يغنون . »

.. ويقول محمود فهمى باشا . « رأيت فى ذلك الوقت بعينى ماحصل من غيره الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم نساؤهم وبناتهم وأولادهم . والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول » (١) .

. . ولنترك الأعداء أنفسهم يتحدثون . .

– « لما وجدت أن الحصون أقوى مما كان يظن وأن جنود المدفعية لايستهان بهم وأنهم يحكمون الضرب رأيت أن من الصواب أن ألقى المراسى لكى أحصل على المسافة اللازمة بدقة . . » (٢)

من تقرير قومتدان هنت قائد المدرعة سلطان ،

---

(١) البحر الزاخر جـ ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) محمد صبيح ص ٢٩٦ .

— « فى اعتقادى أنه لايستطيع إلا القليل من الناس أن يؤدوا واجبهم بمثل ما أداه أولئك الجنود . . وليس فى مقدور الإنسان أن يخفى دهشته وإعجابه من بسالة الجنود الذين كانوا يقاومون تحت وابل القنابل . . بل ويحاولون أن يرفعوا أحد المدافع بعد أن سقط من مكانه » .

من تقرير ماجور « تلك » من رجال المخابرات الإنجليز .

— « إننى لا أملك سوى الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من من البطولة والبسالة والثبات فى مواقعهم . . كانوا شجعانا يصمدون لغارات جبارة » .

من تقرير وكيل القنصل اليونانى بالاسكندرية .

وبالمدافع القديمة التى يعلوها الصدأ وخلف الطوابى المهدمة . . صمد الجنود المصريون والشعب المصرى . . أمام :

٢١٩٨ من قذائف المدافع الضخمة .

٧١٠٠ من قذائف مدافع السربيد .

١٦٢٣٣ من قذائف مدافع . فورد .

١٠١٦٠ من قذائف بنادق مارتينى هنرى .

٢٧ صاروخاً .

٨٥٦ر١٣١ رطلا من البارود .

وهكذا قرر عرابى إخلاء الإسكندرية ليبدأ حرب الصمود فى كفر الدوار والتل الكبير . والحقيقة أن كثيراً من الناس ينسون هذه الفترة من تاريخ النضال المصرى . . يذكرون ضرب الإسكندرية . . ثم موقعة التل الكبير ولاشىء بينهما . . ناسين أن الفصل الزمنى بينهما أكثر من ستين يوما خاضها الجيش المصرى والشعب المصرى فى معركة ضارية وصمود رائع لقوات تفوقه العدد والسلاح .

— — —

لقد كان عدد الجيش الإنجليزى ٦٠٠ر٥٠ جندى كما أعلن وزير الحربية الإنجليزى بنفسه . أما الجيش المصرى فكان ٠٠٠ر١٣ جندى فقط موزعين فى مناطق مختلفة وأنضمت إليه جموع لاأول لهاولا آخر من الفلاحين والعربان .. كثيرون منهم من كانوا بلا أسلحة ولا تدريب (١) .

وعندما أصدر عرابى قرار بتجنيد ٠٠٠ر٥٠ من الخفراء لأنهم على أية حال قادرون على استعمال البندقية لعبت الخيانة دورها فكان المديرون وكبار الموظفين يرساون إليه المشوهين والعجزة ... ومع ذلك كان عرابى مصمما على المقاومة حتى النهاية .. ويكتب جورج فيس قنصل إنجلترا فى القاهرة .. إلى مالت القنصل الإنجليزى العام ليقول : « لقد علمت من مصدر أركن إليه أن الجهادية قد قرروا فى حالة دخول الإنجليز إلى القاهرة أن ينقلوا عائلات الضباط إلى القلعة ويتحصنون فيها فيدافعون عن أنفسهم من هناك . وقد شرعوا من الآن فى إجراء التدبير اللازمة لذلك وصرفوا فى الأيام الأخيرة معظم عنايتهم إلى هذا الأمر فملأوا الشون والمخازن ميرة وذخيرة واستجلبوا كمية وافرة من الدقيق وعدداً كبيراً من الثيران والبقر والغنم والخيل وهم فى كل يوم يبتاعون ما يجدونه من ماشية وعلف واعتنوا بإصلاح آلات بئر يوسف ليحصلوا من مائها احتياطيا فيما لو قطعت شركة المياه الماء عن القلعة وقد خزنوا كذلك ٣٥٠ ألف أقة بقسماط ولا تزال أفران البقسماط تشتغل بالليل والنهار والمسموع أنها تنتج يومياً ٥٠٠٠ أقة وإذا عدلنا قوت الشخص الواحد فى اليوم بنصف أقة كان مجموع ما عندهم كافيا لثلاثة عشر ألف جندى طوال ستين يوماً .

أما أسلحة القلعة فهى عبارة عن ٤٢ مدفعاً قديماً من مدافع السفن المصرية من أيام محمد على ولهذه المدافع نحو ٠٠٠ر٢١ حشوة .

---

(١) راجع الرافعى ص ٤٠٧ .

وأما الأسلحة الصغيرة فلديهم ٠٠٠ر١٣٠ بندقية لى انفلد و ٢٧ مليون طلقة (١) .

وانتشر المتطوعون يبنون خطوط الاستحكامات على طول جبهة كفر الدوار . . واستحكامات أخرى فى التل الكبير .

وهكذا استعد عرابى للمقاومة حتى النهاية . .

وكانت استجابة الشعب أكثر من رائعة . .

ألوف المتطوعين . . فى كل مكان . . والتبرعات بالمال والغذاء تنهال من كل مكان حتى لم يشعر المسئولون عن التموين بأية أزمة فى تموين كل هذه الأعداد الغفيرة . .

. . والمظاهرات تطوف فى كل مكان . .

يا توفيق ياوش القملة .

مين قال لك تعمل دى العملة

يارب ياعزيز

كبة تاخد الإنجليز . .

وتتألف فرقة كاملة من الدعاة الثوريين لتحميس الجماهير . . وتلمع أسماء مثل : الشيخ محمد أبو الوصل — والشيخ حميد الدمنهورى — والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر — والشيخ محمد فتح الله .

ويردد الرواة عشرات القصائد تلهب حماس الجماهير :

وإنا لقوم نرى القتل سبة

إذا ما رآه ولسلى وسمور

وأخرى تقول :

نوال المعالى من طعان الكتائب

ونيل الأمانى من ثمار المتاعب

وقهر الأعادى بالتدبير أولا

وبعد بإشهار السيوف القواضب

ومن كعرابى فى البرايا وحزبه

أولى العزم أصحاب القنا والقواضب

وفى جهة كفر الدوار كانت المعارك تتوالى كل يوم .. ويسجل الجنود المصريون أروع الانتصارات وتتوالى البلاغات العسكرية ..

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم .

انتشبت الحرب بيننا وبين العدو وكانت قوته مركبة من عشرة آلاف جندى حضر منهم جانب فى أربعة قطارات بالسكة الحديد من جهة القبارى وفى كل قطار ثلاث عربات فيها مدافع وعدة قولات حضرت من جهة المحمودية وحجز النواتية والرمل ومحطة السيوف مؤلفة من مشاة وخيالة وطوبجية .. فلما صارت القطارات بالقرب من المقدمة أطلق عليهم أحمد افندى فضلى اليوزباشى مدفعاً فجاوبته مدافعهم من جانب السكة الحديدية ومن طابية الرمل .. وعقد الدخان سحاباً فى جو الميدان وقد وصلت قنابلنا إلى عربات القطار الأول وانفجرت فيها وأتلفت كثيراً منها بمن فيها حتى اضطر العدو إلى رفع مدافعه وعودته مع باقى القطارات إلى القباوى وفى أثناء هذه الحركة اقترب مشاتهم وخيالتهم حتى صاروا بمرأى العين من عساكرنا وتحت نيراننا ونيراننا وهنالك قامت الحرب على قدم وساق وأظهرت عساكرنا ما يفتخر به كل مصرى حتى إذا تقهقر العدو هجمت عليه خيالتنا وخمسمائة من خيالة العربان فانقضوا عليه كالسيل المنحدر حتى أدخلوه الاسكندرية وكان خيالتنا والعربان على شكل (خرجه جى) منتظم .. وخسائرنا قليلة جداً أما خسائر العدو فكانت كثيرة فقد كانت هزيمتهم عبارة عن تبديد وتشتيت والله يؤيد بنصره من يشاء »(١) .

---

(١) مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٠٧ .

وتتوالى الانتصارات .. فى ٢٠ أغسطس معركة ينتصر فيها المصريون وفى ٢٢ أغسطس معركة أخرى ينتصرون فيها أيضاً ويصيبون قطاراً محملا بالجبخانة إصابة مباشرة وينسحب العدو .

ويقتنع العدو أنه يستحيل عليه النفاذ من هذا الخط المنيع .. وأنه يستحيل عليه عبور الدلتا إلى القاهرة فإن عرابى قد وضع ترتيبات لإغراق الدلتا وبالتالى يستحيل عليهم التقدم .

وانتقل ثقل المعركة إلى الجبهة الشرقية .. بهدف محاصرة عرابى بين الاسماعيلية والاسكندرية فلا يكون أمامه سوى الصعيد .

ولاحظ عرابى ذلك وتقول جريدة التان الفرنسية نقلا عن مراسلها المرافق للقوات المحاربة « وجه عرابى قوات عظيمة إلى التل الكبير وهذه الجبهة ليست صالحة للحركات الحربية بالنظر إلى كونها محاطة بأراض سهلة .. ومع ذلك فقد اضطر عرابى لاختيارها لكونها نقطة مهمه تتحكم فى الترعة الحلوة وفى شبكة السكة الحديدية الموصلة من الزقازيق إلى القاهرة والممتدة إلى دمياط والسويس .. وفوق ذلك أقام عرابى سلسلة من الخطوط والاستحكامات الأمامية فى نفيشة بحيث يضطر الانجليز إلى الاستيلاء على مواقع نفيشة ثم الصالحية ثم التل الكبير قبل أن يصلوا إلى الزقازيق مفتاح الطريق إلى القاهرة .. » (١) .

ومرة أخرى فى الجبهة الشرقيه كما فى الجبهة الغربية سجل المصريون سلسلة من الانتصارات ويصدر وكيل الجهادية بياناً فيقول :

« قد استفدنا من الأخبار الواردة إلينا عن حرب يوم الاثنين الماضى ٢٨ أغسطس من مركز الجيش الشرقى أن عساكرنا غنموا من جيش العدو غنائم كبيرة من ضمنها سبعون رجلا انجليزياً وعدد وافر من الخيول الانجليزية ومقادير كبيرة من الأسلحة .. وقد تركوا قتلاهم فى ميدان الحرب بعد أن ولوا منهزمين فالتزام عساكرنا بدفنهم حسب القانون العسكرى القاضى

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٣ .

على الغالب بدفن قتلى المغلوب إذا لم يأت لدفنهم .. وقد دفن فى هذا اليوم من القتلى الإنجليز ٨٠٠ قتيل .. وهم غير الذين حملهم العدو إلى مراكزه فقد ورد ألينا من على باشا فهمى أنه رأى حريقاً فى جهة الكوبرى فأرسل بعض الكشافة فأخبروه أنه حريق قتلى الإنجليز .

وقد استشهد من عساكرنا ستون شهيداً وجرح خمسة وثمانون وأرسلوا إلى القاهرة فوصلوا عصر يوم الثلاثاء وبوصولهم ذهبت إليهم بنفسى لاقتبس من بركاتهم واسلم عليهم واحييهم وبالتأمل فى جراحاتهم وجدت أن نحو ثلاثة أرباعهم مصابون من السيوف والسناكى أى من الالتحام بالسلاح الأبيض وعندما كنا نحييهم نطقوا بلسان واحد إننا نتمنى الشفاء فى هذه اللحظة ونعود إلى مواقع القتال لننتقم من أعدائنا .. » (١)

لكن البسالة وحدها لا تكفى .. فالخيانة كفيلة بأن تهزم أقوى وأشجع الجيوش .. أو ليس الوالس كما يصفه الشعب كان سبب الهزيمة .. وإذا كان الشعب المصرى يؤكد أن « الولس هو الذى هزم عرابى .. » فإن المؤرخ بيوفيس يقول .. « لا تحسبوا أن انتصار القوات الإنجليزية كان بسبب كفاءة قوادها ومهارتهم ولكن سببها الخيانة وحدها .. الذى هزم عرابى ليس الجنرال ولسلى لكن الذى هزمه هو سلطان باشا وزملاء سلطان باشا من الخونة » (٢) .

وبدأ رسل سلطان باشا يندسون وسط الجيش .

وفى ١٠ سبتمبر وصل إلى الاسكندرية أربعة ضباط تركوا مواقعهم فى أبى قير معلنين طاعتهم للخديو وهم عفيفى سالم ، محمد كامل ، محمد شريف ، بكير مرسى ، وأنعم عليهم الخديو بنياشين ..

وأصدر الخديو قراراً بأن يعطى كل من يترك جيش عرابى مرتب شهر ونصف .. وتوالت نياشين الخديو وانعاماته على الخونة - منيب افندى

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٧ .

(٢) مجلة المصور ١٣ مارس ١٩٥٣ .

البكباشى النيشان المجيدى الثالث ، عبد الرحمن افندى نصر الصاغ النيشان العثمانى الرابع .. وعشرات من النياشين والأوسمة (١) .

واندس أعوان سلطان باشا وسط معسكرات الجيش .. ويروى عرابى فى مذكراته أن أحمد عبد القادر عمدة تلا والسيد الفقى العضوين فى مجلس النواب عن مديرية المنوفية قد تسللوا إلى المعسكرات وأثروا على عبد الرحمن بك حسن حكمدار آلاى السوارى الثانى وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية وعلى بك يوسف قومندان الآلاى الثالث وأحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى .. (٢)

ليس هذا فحسب .. فالعربان وهم إحدى القوى الأساسية فى الجبهة الشرقية انضم بعض مشايخهم إلى ركب الخيانة ..

.. وجواسيس سلطان باشا وزعوا آلافا من نسخ مجلة « الجوائب » التى تحمل قرار السلطان بعصيان عرابى ..

.. والجيش الإنجليزى يضم جنوداً هندية كثيرة اشاع الجواسيس أنهم جنود السلطان وأنهم مسلمون ..

ومعظم المتطوعين يمتلئون حماساً لكنهم لم يدربوا بعد على فنون القتال .

وأشاع على بك يوسف أنه سمع من جواسيسه أن الانجليز لن يخرجوا هذه الليلة للحرب.ومع ذلك أصدر على باشا الروبى أوامره بأن تتم إقامة خط ترابى من الاستحكامات ولم ينفذ على يوسف الأوامر ..

وتحت ستار الليل تقدم الإنجليز .. وأمامهم كشافة عربان.من الهنادى وعلى يوسف أمر باشعال الفوانيس على طول خط القتال لإرشادهم ..

وبلغت القوات الإنجليزية مقدمة الجيش المصرى عند الفجر .. لكن المقدمة كانت تحت امرة الخونة .. أحمد عبد الغفار وعبد الرحمن حسن

---

(١) مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٠٩ .

(٢) الرافعى ص ٤٣٧ .

وتراجعت المقدمة فى هدوء لتفسح الطريق أمام العدو .. ثم تصل القوات الإنجليزية إلى خط الدفاع الثانى تحت أمرة على بك يوسف .. فينسحب هو أيضاً فى هدوء ويتقدم الإنجليز إلى قلب الجيش وأحاطوا به وبدأوا فى إطلاق الرصاص ونيران المدافع .. (١)

ويؤكد أحد الضباط الذين شهدوا موقعة ١٤ سبتمبر أنه رأى بنفسه سبعة من الضباط المصريين يقودون الإنجليز ويوجهونهم (٢) .

ورغم كل ذلك .. ورغم هول المفاجأة صمد جنود مصريون بواسل .. ضاربين أروع آيات البطولة .

محمد عبيد الذى صمد صمود الأبطال حتى آخر طلقة وظل لسنوات عديدة شبحاً يخيف للمستعمرين وأسطورة يرددها الفلاحون كلما أرادوا ارهاب الإنجليز .

هنا ظهر محمد عبيد .. محمد عبيد فى يافا .. محمد عبيد يستعد لتكوين جيش والإنجليز يصدقون كل ذلك .. ويفتشون ويقبلون الدنيا بحثاً عن البطل الشهيد ..

وأحمد بك فرج قومندان آلاى البيادة .

وعبد القادر عبد الصمد . .

وحسن افندى رضوان اليوزباشى قومندان الطوبجية الذى صمد صمود الأبطال ومزقت مدفعيته كثيرا من صفوف العدو . . وظل يقاتل وهو جريح .. وإعجاباً ببسالته ترك له ولسلى قائد العدو سيفه تقديراً له .

واحمد عرابى وعلى الروبى صمدوا هم أيضاً يحاولون إلى آخر لحظة جمع اشتات الجندى .. أو اتخاذ مراكز جديدة فى بلبيس لكن الخيانة كانت قد أستثمرت كل شيء .. قطارات الذخيرة .. والمواقع العالية المشرفة على الميدان والطرق .. والاستحكامات وكل شى ..

---

(١) الرافعى ص ٣٤٧ .

(٢) مجلة الطائف المصور عدد ٢٣ سبتمبر ١٩٢٩ ص ١٢ .

وأسرع عرابى إلى القاهرة مصمماً على المقاومة ..

وفى قصر النيل عقد اجتماع من قادة الجيش والمدنيين ورجال الدين وبعد لقاش صخب ملىء بالتخاذل وافق المجتمعون على رأى عرابى بإنشاء خط استحكامات جديد .. وذهب عرابى إلى العباسية فلم يجد إلا ألف رجل من الخفراء .. وأربعين نفر سوارى بقيادة الأميرال أحمد نبر .. وقال الأميرال أقاتل بجنودى الأربعين حتى آخر طلقة ..

لكن صمود أربعين جندياً لا يهزم جيشاً ..

وعاد عرابى إلى الاجتماع .. وبدأ المجتمعون يظهرون ضعفهم أكثر فأكثر واقترحوا كتابة عريضة يستعطفون فيها الخديو ويعتذرون له .. لكن النديم يرفض قائلا فى شجاعة « لقد فعلنا ما وجب علينا أن نفعل » .

وانتهت المعارك المسلحة لكن صمود الشعب الباسل الذى هزمته الخيانة لم يقف عند حد ..

فى التحقيقات تجلت شجاعة العرابيين نادرة .. عرابى يدافع فى شجاعة عن كل مواقفه ..

يدافع عن وقفته الباسلة فى ميدان عابدين فى وجه الخديو يوم ٩ سبتمبر قائلا « أن الأسباب التى دعت إلى ذلك هى عدم الأخذ بالعدل والمساواة فى المعاملات فالبلاد لم يكن بها قوانين .. فلذلك اعتمد على أبنائهم رؤساء العسكرية وتألفت أنفسهم لتشكيل مجلس نواب يمثل البلاد ويحفظ لها حقوقها ويدفع عنها ما ألم بها من المظالم »

ولما سألوه عن مطالبته بعزل الخديو بعد قبوله اللائحة .

أجاب : « لقد أجمع الجميع على رفض اللائحة وكان من رأى الجميع التسليم فى عزل الخديو وعدم التسليم فى قبول اللائحة ولما استقر الرأى على التسليم خلع الخديو وعدم التسليم فى قبول اللائحة وقفت وقلت من وفق على ذلك فليقم معنا فوقف الجميع »

وسألوه لماذا لم تنقاد لأمر الحضرة الخدوية بقبول اللائحة والامتناع عن حرب الانجليز .. ويجيب ببساطة : « أن بقاء الخديو فى الاسكندرية أما يكون لأخذه أسيراً أو لانحيازه إلى الطرف المحارب من أجل ذلك كتبت لوكيل الجهادية بما حصل للمشاورة مع رجال الحكومة فى هذا الأمر .. وعلى ذلك صار اجتماع عام من وكلاء الدواوين والمديرين والبرنسات والعلماء وشيخ الإسلام والقاضى وأعيان التجار والعمد وتشاوروا فيما بينهم واستقر رأيهم جميعاً على إعطاء قرار بعدم سماع أوامر الحضرة الخديوية وتوقيفها عن الأعمال حيث أنه توجه للطرف المحارب»(١) .

هكذا وقف عرابى يدافع فى شجاعة البطل وفى عزة الزعيم عن مواقفه فى عدوه الطاغى ..

وغير عرابى كثيرون صمدوا هم أيضا فى شجاعة نادرة الشيخ حسن العدوى .

سألته المحكمه هل أصدرت فتوى بعزل سمو الخديوى توفيق ؟

وأجاب : « أنا لم أصدر هذه الفتوى لأن أحدا لم يطلبها منى ومع ذلك لو قدمت لى هيئة المحكمة الآن فتوى بعزل توفيق لما ترددت فى توقيعها وليس فى وسع هيئة المحكمة وأعضاؤها مسلمون أن تنكر أن الخديو توفيق مستحق العزل لأنه خرج على الدين والوطن » .

والسيد حسن العقاد .

تلت عليه المحكمة رسائل لم تكن بخطه - تقول أن توفيق أهبل وأنه لم تعد له ولايه على مصر فقد خرج على الشرع لانضمامه للانجليز ..

فقال العقاد بنساطة « أنا كاتب هذة الرسائل » رغم أنها لم تكن بخطة .

وأعترف أنه وقع قرار عزل توفيق راضيا مختارا .

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع مصر للمصريين - محاكة العرابيين طبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية سنة ١٨٨٤

وسئل عن ثروته اين ذهبت فقال .

« انفقتها فى سبيل الثورة » . .

لكن آيات الشجاعة كانت بغير حد . .

وظل البطل المنفى يتلقى سرا فى منفاه رسائل من الثائر الهارب عبد الله النديم تحكى له كيف صمد أبطال ثورته . .

وفى أحدى الرسائل يقول النديم « وأنى لآسف على البطل يوسف أبو ديه فما أحسن ما ابداه من الثبات وهو تحت مشنقة الممات حيث قال له مدير الغربية إبراهيم أدهم هل تريد شيئا نحضره لك قبل القضاء عليك ؟

فأجاب البطل . . أريد لمصر الاستقلال الذى كان معقد الآمال . . أى شيء يرضينى وقد قطعتم آمالنا . . لكن اليوم لكم وغدا لنا . . »(١) .

وظلت الثورة تتردد أصداؤها فى نفوس الشعب . . مرددة شعار البطل يوسف أبو ديه . . اليوم لكم وغدا لنا .

(١) عبد الله النديم ص ٢٧٢ .

المراجع

(أ)مراجع عربية ومترجمة

ـ أ. ب كلوت بك ـ لمحة عامة إلى مصر ـ تعريب محمد مسعود (جزءان) .

ـ إبراهيم عامر ـ الأرض والفلاح .

ـ أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) ـ تاريخ التعليم فى مصر .

ـ أحمد عبد المجيد الفقى ـ ـ قصة أحمد عرابى ـ سلسلة الكتاب الماسى .

ـ تاريخ مصر فى هذا العصر ـ مخطوط بعبدالله النديم ـ حققه ونشره د . محمد خلف الله تحت إسم « عبد الله النديم ومذكراته السياسية .

ـ تاريخ الجبرتى ـ مطبعة الشعب .

ـ جرجى زيدان ـ تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى اليوم .

ـ دافيد لاندز ـ بنوك دناشوات ـ ترجمة د . عبد العظيم أنيس .

ـ راشد البراوى (دكتور) ومحمد حمزة عليش ـ التطور الإقتصادى فى العصر الحديث .

ـ روزنشتين ـ تاريخ مصر قبل الإحتلال وبعده ـ ترجمة على شكرى .

ـ رفاعه رافع الطهطاوى ـ مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية .

ـ زكى فهمى ـ صفوة العصر فى سيرة مشاهير رجال مصر .

ـ سليم خليل نقاش ـ مصر للمصريين (خمسة أجزاء)

ـ صلاح نصر (يوزباشى) وكمال الدين الحناوى (يوزباشى) ـ الشرق الأوسط فى مهب الرياح .

— طه شرف (دكتور) — الأحداث العربية تاريخها الحديث — سلسلة اخترنا لك

— عباس العقاد — محمد عبده — سلسلة أعلام العرب .

— عبد الرحمن الجبرتى (الشيخ) — مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس .

— على الحديدى (دكتور) — عبد الله النديم — سلسلة أعلام العرب .

— عبد العزيز رفاعى (دكتور) فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة .

— عبد الرحمن الرافعى — الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى .

— على باشا مبارك — الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة .

— عزيز خانكى بك — أحاديث جديدة .

— محمد صفوت (دكتور) — الإحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه

— محمد صبيح — مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية

— محمد رشيد رضا — تاريخ الأستاذ الإمام .

— محمود الشرقاوى — دراسات فى تاريخ الجبرتى .

— محمود باشا فهمى — البحر الزاخر فى سيرة الأوائل والأواخر (جزءان) .

— نعمان عاشور — صور من البطولة والأبطال .

ب — دوريات

— التنكيت والتبكيت (مجموعة عام ١٨٨١)

— التجارة (مجموعة عام ١٨٧٩)

- الثقافة (مجموعة عام ١٩٦٥)
- آخر ساعة (مجموعة عام ١٩٥٩)
- أخبار اليوم (مجموعة عام ١٩٦٣)
- اللطائف المصورة (مجموعة عام ١٩٢٩)
- الأهرام (مجموعات الأعوام ١٨٨١ حتى ١٩٦٢)

المصرى (مجموعة عام ١٩٥١)

- المصور (مجموعة عام ١٩٥٣)
- الكاتب (مجموعة عامى ٦٤ — ١٩٨٥)
- الهلال (مجموعة عام ١٩٦٦)
- الوطن (مجموعة عام ١٨٧٩)
- الأويزفر (السيلانية) (مجموعة عام ١٨٨٣)

مراجع أجنبية

Wilfrid Blunt – Secret History of the English Occupation of Egypt. – Lndon. T. Fisher Unwin. 1907.

Viscont Milner England in Egypt –Thirteeuth impression. 1907

Cromer Modern Egypt. 1908.

Edward Dicey The Egypt of the Future. – London. William Heinmann. 1907.

Edward Dicey Egland and Egypt' – London. Chapman and Hall. 1881.

Sir Valenting Chirol The Egyptian Problem. – Macmillan and Co. London. 1920.

Gabriel Baer–A History of Landownership in Modern Egypt. 1800–1950 – Oxford University. 1992.

Artin La Propriété Foncière en Egypte Cairo. 1883.

Selected Works of Marx and Engels. Foreign Languages Publishing House Moscow.

فهرس

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ٢٢١٩ /٩٣

I.S.B.N.977-01-3263-2

● تعتبر محاولة الدكتور رفعت السعيد أوفى محاولة لتاريخ الثورة العرابية بتطبيق المادية التاريخية كمنهج للرؤية والبحث. والحقيقة أن الدكتور رفعت السعيد يقدم رؤية جديدة ومختلفة عن غيره من الباحثين تستحق الاعتناء بها والاحتفاء بمجهوده للتوصل إليها، وهو مجهود يخضع لشروط البحث العلمى ويحمل صاحبه رؤية اشتراكية - نظرية وعملية - لاشك فيها.

صلاح عيسى - كتاب الثورة العرابية

● .. وهكذا المسرح الدوار فى هذا الكتاب، يدور بك من مشهد إلى مشهد، قبل أن يمس الثورة العرابية بكلمة واحدة، لكنها مشاهد تتلاحق، فتكشف لك من الخبىء مايلقى لك الضوء، وكلما انفتح الستار على مشهد جديد، أخذك شىء من الدهشة بمشاهدة ما يخيل إليك أنه جديد لم يطرق سمعك ولا مثل أمام بصرك قبل الآن .

مجلة الفكر المعاصر

● .. وقرر رفعت السعيد أن يترافع عن قضية أحمد عرابى باشا، واستغرقت مرافعة المؤلف ٢٢٠ صفحة قدم فيها لمحكمة التاريخ الأساس الاجتماعى والتاريخى لمصر قبل وإبان وبعد عرابى باشا.

أنيس منصور - جريدة الأخبار

● أنه واحد من أحسن خمسة كتب صدرت هذا العام

غالى شكرى - مجلة الطليعة

● ولكتاب رفعت السعيد - فوق ذلك كله - أنه يرسخ ويركز هذا الاتجاه العلمى والموضوعى الحى فى كتابه البحث التاريخى.

سالم يوسف - مجلة الطريق اللبنانية

● أنه دفاع مجيد، صادق، أمين عن عرابى.

توفيق حنا - مجلة الطليعـ

● لقد وفق الدكتور رفعت السعيد فى كتابه عن الثورة العرابية، وفى المنهـ العلمى الذى اختاره، وأضاف إلى حياتنا كتاباً سياسياً تاريخياً صحح جانباً حيوياً من تاريخنا وتراثنا الثورى .

كمال القلش - جريدة الجمهور

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٥٠ قرشا